

مصرع الفاتح قتيبة بن مسلم
(رؤية تحليلية)

الدكتور أحمد السري
جامعة الإمارات العربية المتحدة

مصرع الفاتح قتيبة بن مسلم "رؤية تحليلية"

الدكتور أحمد السري

جامعة الإمارات العربية المتحدة

تمهيد:

يندر أن يخلو كتاب تاريخ يعالج أحوال العالم الإسلامي في العصر الأموي دوراً هاماً من دور الفاتح العظيم قتيبة بن مسلم الباهلي، وأنى لمؤرخ أن يتجاهل الفتوحات المبهمة التي أنجزها قتيبة في خراسان وما وراء نهر جيحون، ووصلت إلى مشارف الصين، في الثلث الأخير للقرن الأول الهجري^(١)، وأنى له أيضاً أن لا ينفث رفرة ألم وهو يقرأ في النهاية المأساوية التي لقيها قتيبة وينظر في مصائر الأبطال الفاتحين.

وقد اختلطت مواقف المؤرخين من نهاية قتيبة من الدولة الأموية ومن خلافة سليمان بن عبد الملك بالذات والذي شهد عصره القصير -باستثناء دعم محاولة جديدة لفتوح القسطنطينية- توفقاً للفتوح خلف الخطوط التي وصل إليها قادة الفتح المتظامين من سلفه الوليد بن عبد الملك وأوصلوا الفتوح الإسلامية إلى أقصى اتساعاتها في آسيا والشرق.

ومن أمثلة الكتابات التاريخية في هذا الاتجاه ما كتبه يوسف العثري وفي سطونج^(٢) بأن قتيبة حاول الخروج على سليمان فأوقفه بنو تميم بالقتل، ثم أشار إلى أفواله في

المؤرخين الذاهبة على أن سليمان كان عنيفاً مع أبطال الفتح الكبار، ولكنه يشك في ذلك معتمداً على وجود عمر بن عبد العزيز (ال خليفة الورع فيما بعد)، مستشاراً لسليمان حجة لذلك^(٢). أما عبد اللطيف عبد الشافي فقد استخدم لغة أرق تجاه قتيبة فأشاد بفتوحاته التي تتبعها واحدة واحدة، ثم أشار إلى سوء العلاقة بين الخليفة سليمان وقتيبة بسبب موافقة قتيبة على خلع سليمان عن ولاية العهد، وأن قتيبة قد تعجل خلع طاعة الخليفة وأن الأخير كان قد ثبته في ولايته تكريماً له، وأن جند قتيبة كرهوا خلع قتيبة لسليمان فثاروا عليه وقتلوه^(٣)، ويكمل كتاب آخر قتيبة لمجموعة مؤلفين الموقف بشأن نهاية قتيبة فيشير إلى نزع ولاية العهد عن سليمان وخشية قتيبة من الانتقام فقرر التمرد على سليمان رغم أن الأخير ثبته في ولايته، لكن القبائل العربية كرهت ذلك منه فقتلته^(٤).

هذه الإشارات المختصرة في هذه الكتب تشكل عينة للشائع المتداول عن قتيبة بن مسلم ونهايته، وهي على هذا النحو لا يمكن أن تعد أعمال سابقة، لأنها أوردت ما أوردت عن قتيبة بن مسلم في سياق تاريخ عام للعالم الإسلامي زمن الأمويين، حيث لا يمكن أن تحصل قضايا التاريخ المثارة في المؤلفات العامة على قدر كاف من النقاش بحيث تستقصى المصادر وتستتطق الروايات وتحلل المواقف للخروج بمشهد تفصيلي ورأي يقترب من الواقع، وهذا ما عزمنا عليه في هذا البحث الذي سيجاول تحليل الروايات المختلفة وإلقاء الضوء على الظروف التي لقي فيها قتيبة بن مسلم مصرعه بعد تولي سليمان بن عبد الملك مقاليد الخلافة.

ولا بد من الإشارة إلى مؤلف آخر بعنوان: "الدولة العربية وسقوطها" لمؤلفه المستشرق الألماني يوليوس فيلهوزن، وقد صدر هذا المؤلف عام ١٩٠٢م، أي قبل قرن من هذا التاريخ، وترجم إلى العربية نهاية الستينيات بعنوان: "تاريخ الدولة العربية الإسلامية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية". في هذا الكتاب خوض جيد في علاقات القبائل ببعضها في خراسان خاصة حيث جرت الحروب المتتابعة بين

القبائل. وفيما يتعلق بمقتل قتيبة بن مسلم ضمّ فيلهاوزن صوته إلى صوت الرواية المشهورة عن مقتل قتيبة كما ترد عند الطبري والبلاذري والتي تصوره خلع طاعة سليمان بن عبد الملك وأهان القبائل التي رفضت فكرة الخلع فتكتلت ضده وقتلته، لكن فيلهوزن يلقي ضوءاً على طبيعة معسكر قتيبة والعلاقات القبلية السائدة فيه ويطرح تفسيراً لفشل ما أسماه "الثورة على الخليفة" وهو أنه "ليس من السهل على إنسان مهما كان كفواً عظيم المقدرة، ما دام لا يربطه بالعرب إلا منصبه، أن يستطيع ضمهم إلى جانبه عندما يكون ثائراً على السلطة التي يستند إليها في شرعية منصبه"^(٥). وقد ألمح فيلهوزن إلى دور تميم في مقتل قتيبة لأنه وترهم بمقتل أفراد منهم من بني الأهم، كما أشار إلى موقف قبائل قيس وأنها خذلت قتيبة، وهي أفكار فيها تعميم وإطلاق لا تصمد أمام التمحيص الدقيق للروايات كما سنبين.

قتيبة والحجاج بن يوسف الثقفي:

ولارتباط مصير قتيبة بصلته بالحجاج بن يوسف الثقفي فلا بدّ من عرض هذه العلاقة أولاً، فقد اصطنع الحجاج لنفسه رجلاً يشبهوه في الشدة والقوة والشكيمة، ولم تخطئ تصوراتهم فكان أن عين قريبه محمد بن القاسم الثقفي عام ٩١هـ، والياً على جهات السند ففتح في تلك البلاد وأوغل، كما عين قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان عام ٨٦هـ، فطرح بممالك ما وراء النهر، ووصلت فتوحاته إلى كاشغر، وهي من أعمال الصين عند الحدود الشمالية الشرقية.

وقد كان الحجاج لهذين الفاتحين العظميين السند القوي في العراق وعند الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. وكان يدعمهما بما احتاجا إليه من مال وسلاح ورجال، بل ويوجههما من العراق باتجاه الأهداف العسكرية المطلوب فتحها. لكن السند المعنوي كان أهم سند لهما ولقتيبة بن مسلم الباهلي بالذات الذي ينتمي إلى قبيلة عذها العرب من القبائل العربية التي لا تشرف أحد بالانتماء إليها^(٦)، وسيلعب هذا النسب

القبلي بعدئذٍ دوراً في تحديد مصير قتيبة. فقتيبة بن مسلم صنيعة الحجاج أصلاً وأحد أركان قوته، لدرجة أن قتيبة في عهده مع أهالي البلاد المفتوحة كان يضمن على تنفيذ العهود بدمته وذمة الحجاج بن يوسف^(٧)، كما أن قتيبة وتعبيراً منه عن عمق صلته بالحجاج قد سمي ولده الثاني الحجاج، وفي هذا من الدلالة ما يكفي على طبيعة العلاقة بين الرجلين^(٨). وقد أدرك المستشرق الإنكليزي جب طبيعة العلاقة بين الحجاج وقتيبة فذكر أن نجاحات المسلمين فيما وراء النهر ترتبط أشد الارتباط بالتنسيق الكامل بين القيادة العبقريّة للحجاج والكفاءة العسكرية لقتيبة، ويضيف أن الأطراف العربية جميعها في معسكر قتيبة أدركت أن وراء قائدهم العسكري تكمن في سلطة الحجاج^(٩). ويبدو أن الطاعة المخلصة والنجاح الكبير الذي أصابه قتيبة قد وطّد العلاقة بينه وبين الحجاج على نحو خاص ولاسيما الحجاج محاط بأعداء وأنصاف أصدقاء من كل جانب. وتظهر المراسلات بين الرجلين أن الحجاج كان يتعهد قتيبة بالكتابة إليه في كل الشؤون لدرجة أنه يرسل له كتباً ليخبره بدنو أجله^(١٠). ويموت الحجاج خسر قتيبة سنداً أساسياً كان يعول عليه في كل شيء^(١١)، حتى أنه عاد بعد ذلك من غزواته إلى مرو وكأنه يعلن انتهاء دورة التاريخ هو الآخر، لكن الخليفة الوليد وقد عرف له فضله وبلاءه ومؤازرته له في محاولته تثبيت ابنه عبد العزيز ولياً للعهد بدل سليمان، وإدراكاً منه لما كان يمثل الحجاج لقتيبة، وكتب إليه يقول: "قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فالمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلاءك والثغر الذي أنت فيه"^(١٢).

قتيبة وولاية عهد سليمان:

كانت محاولة الخليفة الوليد بن عبد الملك تحية أخيه سليمان أمير فلسطين عن ولاية العهد لصالح ابنه عبد العزيز، هي التي تدخلت لتشكيل العلاقة القادمة بين الخليفة سليمان وقتيبة بن مسلم. فلكي يضمن الخليفة نجاحاً لما يريد لا بدّ من الحصول على

موافقة من يشاركوه القبض على أزمة الأمور وقواد الجيوش في الأطراف والتي تقع تحت أيديهم جيوش الخلافة. ولم يكن سهلاً أبداً إقصاء ولي العهد وإحلال آخر لارتباط ذلك بيمين بيعة في عنق المبايع يكون ملزماً به حتى الموت، بالإضافة إلى قيم الوفاء التي أعلى العرب من شأنها، ولكي لا تصبح العهود والمواثيق موضع استهتار من أحد، وقد كان أصل الصعوبة يكمن في النظر إلى ولاية العهد كحق شخصي للمبايع له، وهو حق مدعوم بقبول الناس (ببيعهم، أي بيمين ولاء) لهذا الحق. ولذلك كانت محاولات الإقصاء التي شهدتها تاريخ المسلمين من أكثر المواقف حرجاً وارتبطت على الدوام بانقسامات لم تخلو من إراقة الدماء.

وتذكر الروايات أن الوليد بن عبد الملك قد حاول إقناع أخيه بالتنازل بعرض أموال طائلة فلم يوافق^(١٣)، ورغم إيعازه لبعض الشعراء بنشر أشعار تبشر بولاية العهد بل ورغم نجاحاته العسكرية وإنجازاته العمرانية، إلا أنه لم يجد قبولا لفكرته إلا عند الحجاج وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس^(١٤)، وقد نصح الوليد من قبل بعض خواصه أن الناس لن يجيبوه إلا ما طلب ولو فعلوا هانت أيمانهم على ابنه أيضاً، ولذلك لا بد من انتزاع التنازل من سليمان إن أراد حقاً تثبيت الأمر لولده، وقد أراد الوليد لهذه الغاية بعد رفض سليمان القدوم إلى دمشق من فلسطين- التوجه إلى فلسطين ليخلعه هناك، لكنه مرض ومات قبل ذلك^(١٥).

وقد كانت الموافقة على خلع صاحب حق من ولاية عهده من الكبائر السياسية، التي لا تغتفر ولذلك فإن الحجاج وقتيبة بن مسلم قد جلبا لنفسيهما عداوة سليمان بن عبد الملك، والذي كما سننصّر لن يغفر لفعل كهذا. ويبدو أن أي تصرف من قبل سليمان مهما قسى، وأقساه القتل، كان سيقابل بالتفهم من قبل الناس وفق ثقافة العقاب آنذا.

وكان من كرامات الله على الحجاج أن يتوفى قبل أن يصل سليمان إلى سدة الخلافة بعام واحد، إذ توفي الحجاج عام ٩٥هـ، وتولى سليمان الخلافة عام ٩٦هـ، وكان

موت الحجاج ضربة قاصمة لكل من قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي، إذ خسرنا بموته سنداً قوياً كما أنهما ورثا عداوات الحجاج مع الخليفة سليمان وأنصاره من آل المهلب بالذات، وهم من الأزد اليمانية، وآية ذلك أن الحجاج استقدم قتيبة من ولايته على الري وعينه والياً على خراسان بدلاً من المفضل بن المهلب، أخي يزيد فعزلهم قتيبة بعنف وأخذهم أسرى مكبلين إلى ولي نعمته الحجاج في العراق بناء على أوامره^(١٦)، فصار في نظر آل المهلب شريكاً للحجاج في جرمه ضدهم حيث سجلهم وعذبهم وطالبهم بأموال كبيرة يؤدونها للخلافة وكان فيهم يزيد بن المهلب كبيرهم، والذي تمكن وبعض أخوته من الفرار من سجن الحجاج والذهاب إلى فلسطين ليحتمي بأميرها هناك سليمان بن عبد الملك^(١٧)، وليضمن له بالتالي ولاء اليمانية والأزد خاصة، وقد كانوا بأعداد كبيرة في جيش قتيبة.

وهاهو سليمان بن عبد الملك يصبح خليفة ويقرب إليه آل المهلب، ويرتعد لصعوده كل من قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم، وقد خافا بالذات سطوة يزيد بن المهلب وانتقامه، أما محمد بن قاسم الثقفي فقد قبض عليه وأسر حتى الموت عند عامل العراق لسليمان ابن عبد الملك^(١٨).

بين الخليفة سليمان والقائد قتيبة:

تضطرب روايات المصادر حول موقف كل من قتيبة بن مسلم من الخليفة سليمان، وموقف الخليفة من قتيبة وتصل إلى حد التناقض. وينحصر الاضطراب في مسألتين أساسيتين، هما هل ثبت الخليفة سليمان قتيبة في ولايته أم عزله؟ وهل خلع قتيبة بن مسلم طاعة الخليفة سليمان؟ وأهمية هاتين المسألتين تكمن في علاقتهما بمصير قتيبة بعدئذٍ، وهما لذلك مدار البحث أصلاً.

ويجب التنويه إلى أن المصادر التي تعرض روايات مفصلة بتفاوت حول أحداث مقتل قتيبة بن مسلم هي بالضبط فتوح البلدان للبلاذري (ت ٢٧٩هـ) والفتوح لابن الأعمش

الكوفي (ت ٣١٤هـ) وتاريخ الرسل والملوك للطبري (ت ٣١٠هـ). أما مصادر أخرى مثل الأخبار الطوال للدينوري (ت ٢٨٢هـ)، فيختصر الحدث كله بقوله: "إن قتيبة هاج به أصحابه فقتلوه"، وفي مكان آخر يقول: "شغب عليه أجناده فقتلوه"، فيما يبرز اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) خشية قتيبة من الخليفة سليمان وأنه ترك مرو، حاضرة خراسان، وأوغل بالجند حتى فرغانة القصوى^(٢٠)، ثم يذكر أن قتيبة كتب كتاباً فأجابه سليمان يغلظ له، فأراد الخلع^(٢١).

ولنبداً برواية البلاذري المفصلة التي تذكر أنه بعد صعود سليمان بن عبد الملك سدة الخلافة، خطب قتيبة خطبة، لكنه لم يورد منها إلا تشبيه قتيبة لسليمان بأحد الحمقى المشهورين والمضروب به المثل في الحمق^(٢٢)، ثم يذكر أن قتيبة دعا الناس إلى خلع سليمان فلم يجبه أحد، فتحول إلى شتم القبائل^(٢٣)، ثم يعود البلاذري ليذكر أن سليمان كتب إلى قتيبة "بالولاية وأمره بإطلاق كل من في حبسه وأن يعطي الناس أعطياتهم ويأذن لمن أراد القفول في القفول"^(٢٤)، الأمر الذي رآه قتيبة تدبيراً من سليمان ضده "هذا من تدبيره علي"^(٢٥)، خاصة وقد أمر الرسول بإعلان هذا جهاراً في الناس، وتمضي رواية البلاذري في تصوير موقف القبائل التي أحست بالإهانة من شتم قتيبة ووضعت أمام خيارين، "إن أذن لنا بالقفول كان خيراً له وإن لم يفعل فلا لا يلومن إلا نفسه"^(٢٦)، لكنه لنم يستجيب لرغبتهم وخوفهم بالأعاجم الذين استظهر بهم عليهم فأجمعوا على حربه^(٢٧)، ثم تصف الرواية اجتماع الناس إلى وكيع بن حسان التميمي، حيث يقتصر في تعريفه على كونه من الأعراب الجفاة، مطاع في عشيرته، وأنه سيقوم ضد قتيبة للمطالبة بدماء بني الأهم من بني تميم الذي قتلهم قتيبة، وتواصل الرواية تصوير الاستعدادات السرية وكيف أن زعيم الموالي (الأعاجم) حيان النبطي مال إلى جانب وكيع فكانت مقتلة سقط فيها رأس قتيبة وتغلب وكيع على خراسان.

من هذا العرض يتضح أن رواية البلاذري تقرر تثبيت قتيبة في ولايته وأنه خلع سليمان ولم يجبه الجند إلى ذلك، لكن ثورتهم ضده لم تكن غيرة على الخلع بل بسبب مذهبهم من العودة وتخويفهم بالأعاجم.

أما ابن أعمم الكوفي صاحب كتاب الفتوح (الذي لم يكن قد عرف زمن فيلهوزن، والده مهمل نسبياً من المؤرخين المعاصرين) فله رواية مدمجة ومطولة تتداخل فيها الأخبار وتتناقض دون تمهيد، وفي جزء من روايته ينفرد ابن أعمم بذكر أمور مهمة، منها أن الخليفة سليمان عين يزيد بن المهلب أميراً على خراسان، وهذا معناه عزل قتيبة عن ولايته، رغم أن ولاية يزيد لخراسان لم تحصل عملياً إلا بعد عشرة أشهر من مقتل قتيبة في ذي الحجة من عام ٩٦ هـ، لكن توقع ولاية يزيد لخراسان كان هو المساند طوال الوقت، وهو ما عبر عنه قتيبة حين علم أن الخليفة ولي يزيداً بالعراق فقال: "لكن ولاه العراق فقد ولاه خراسان، اللهم إني أسألك ميتة كريمة" (٢٨)، لأن خراسان زمن الحجاج كانت ملحقة إدارياً بالعراق. وكان توقع ولاية يزيد لخراسان من قبل قتيبة في كل وقت، الهاجس الأعظم الذي تدخل في تحديد مواقفه القادمة، لذلك نقل ابن أعمم عن قتيبة أنه سينظر في أمره، لأنه يكره أن يكون في بلد وفيه مثل يزيد بن المهلب، وهي ردة فعل متوقعة وتنسجم مع ما مرّ بنا من علاقات ابن جابن، ثم ينفرد ابن أعمم أيضاً بذكر أن قتيبة كتب إلى سليمان بن عبد الملك يهنئه بالفلاحة ويعزيه عن أخيه الوليد وأنه وجّه الكتاب مع رجل من الأزد، أي من أهل البادية ومن قوم يزيد بن المهلب بالذات، وهو اختيار نرى دلالاته في أن قتيبة يرغب في إعطاء يزيد والخليفة معاً إشارة عن رغبته في معالجة المأزق الذي وضعته فيه تطورات الأحداث، وقد كان أخو الأزد أميناً في عرض الحال في معسكر قتيبة حين استفسره الخليفة عن ذلك، فأخبر أن قتيبة يكره ولاية يزيد وأنه يظن أن قتيبة سيخالف رأي أمير المؤمنين. وليس في هذه الرواية ما يدعو للشك بها، فهي تصور واقع الحال

على نحو يتسق مع مقدماته، فكرة قتيبة ليزيد مؤكد وقد يحمله هذا على الخلاف لكنه لم يخالف بعد.

وأهم ما ينفرد به ابن أعثم لإيراده لنص كتاب من الخليفة سليمان كرد على تهنئة قتيبة له بالخلافة، وفي الكتاب عزل رقيق لقتيبة نرى ضرورة إيراده لما فيه من تسبيب للعزل:

"أما بعد ، فإن الناس قد اشتد عليهم البلاء في ولاية الحجاج من الخوف والحبس والتشريد حتى ضاقت صدورهم، وقد أحب أمير المؤمنين أن يحل عقد الخوف عنهم، وأن ينعشهم بالعدل والإنصاف والأمن، وقد فهم أمير المؤمنين كتابك وتهنئتك وما قد أضمرت في نفسك من الخلاف، فلا تفسد صالح عملك بشق العصا فإن أمير المؤمنين وإن عزلك عن خراسان ولآك غيرها، فأقبل إلى أمير المؤمنين فيمن أحببت من أخوتك وقوادك آمناً مطمئناً -والسلام" (٢٩).

وتكمن أهمية النص في أنه الوحيد المروي في المكاتبات بين قتيبة والخليفة سليمان، وفي النص يظهر الخليفة اعترافاً بفضل قتيبة في الفتوح، كما أنه لم يبرر عزله بما بدر منه في مسألة ولاية العهد وهي الجرم الأكبر، بل بالرغبة في إحلال العدل والإنصاف والأمن محل ما أشاعه الحجاج من خوف وحبس وتشريد كما يرى الخليفة، كما بسط له الأمان ودعاه إلى الشام. وطبقاً لهذه الرواية نرى أن الخليفة قد تعامل مع الموقف بحكمة وحذر شديدين، ويبدو أنه كان قد اطمأن إلى عجز قتيبة عن قيادة تمرد ناجح بعد أن اطلع على طبيعة الأوضاع في معسكر قتيبة من رسول قتيبة إليه ومن ابن الأهم التميمي الفار من معسكر قتيبة والآتي ذكره (٣٠). وهكذا يكون الخليفة سليمان قد وضع قتيبة أمام طريقين لا ثالث لهما إما قبول العزل والتوجه إلى الشام أو إعلان التمرد.

وتنقل رواية ابن أعثم أبيات شعر تظهر قتيبة - إدراكاً منه لمصيره القادم وقلّة ثقته بالخليفة ويزيد - مفكراً بصوت عالٍ حيث يصف يزيداً بأنه جبار العراق وأنه قد رُبّ به، ويرى الموت خيراً من الحياة الذليلة أو الهرب إلى الترك^(٣١).

وتظهر رواية ابن أعثم حيرة معسكر قتيبة من أمر قائده الذي لم يتخذ حتى الآن قراراً واضحاً لحسم الموقف كله. وقد طوّل بذلك من بعض جنده، لكنّه لم يوضح شيئاً مما جعل الجند يعتقدون "أن قتيبة مخالف على سليمان بن عبد الملك وأنه عزّم على العصيان"^(٣٢).

ويواصل ابن أعثم تفردّه بتصوير مواقف يصعب قبولها، وهي أن قتيبة افتعل كتاباً على لسان سليمان فيه كلام يشبه كلام العرافين والمنجمين وأن الخليفة الجديد سيفتح القسطنطينية كما سيفتح الله على يديه أرض الصين، ثم يأمره الخليفة بالغزو بمن معه إلى أرض فرغانة وأن قتيبة دعا الناس إلى ذلك على كرهه منهم فتهجّزوا وخرجوا إلى فرغانة^(٣٣).

ومن الصعب تصديق هذه الأخبار لأن جند قتيبة - وقد علموا ما بين قتيبة والخليفة - لا يمكن قبولهم لمثل هذا الأمر، لكن هذه الرواية تحيط فكرة عن الخطوة التلقائية التي اتخذها قتيبة بعد سماعه بخبر وفاة الوليد، وأشار إليها اليعقوبي، وهي الابتعاد بالجند عن مرو حاضرة خراسان إلى فرغانة "جمع إليه إخوانه وأهل بيته وأوغل في أرض العجم، حتى بلغ فرغانة القصوى"^(٣٤).

ويستفاد من رواية ابن أعثم أن قتيبة قد أخرج الجند الكارهين للخروج بحيلة ما كي يقبلوا الخروج بعد ما عادوا لتوهم من الغزو. كما يبدو أيضاً أن قتيبة قد أعدّ لهذه الخطوة على نحو جيد بحيث ترك جنوداً من أعوانه العجم عند النهر^(٣٥)، بعد عبوره إلى فرغانة يمنعون الجند من العودة إلا بإذن منه^(٣٦)، وقد كان المنع من العودة والاستعانة بالأعاجم من أهم مسببات التوتر بين قتيبة ومعسكره.

وينقل ابن أعثم ردّ فعل الخليفة على خروج قتيبة بالجند إلى فرغانة وأنه كتب إلى يزيد بأن يكتب لقتيبة مظهراً الموافقة على ما فعل، مع ضرورة أن يأمر الرسول ليقول للناس: "بأن أمير المؤمنين قد زادكم في العطايا مائة مائة قد أذن لمن أحب القفول أن يقفل إلى منزله"^(٣٧)، خاصة وأن قتيبة يمنعهم من ذلك، وفي الرواية كما نرى خلط واضح فلا يمكن أن يكتب لقتيبة بالموافقة، ثم الإعلان في الجند عن حق العودة لمن أراد، كما تتعارض رواية ابن أعثم هنا مع ما أورده رواية البلاذري التي ربطت بين إقرار الخليفة لولاية قتيبة على خراسان والإعلان عن السماح بالعودة، بينما تأتي هذه الإجراءات عند ابن أعثم بعد كتاب العزل والتوجه بالجند إلى فرغانة. وتصور رواية ابن أعثم قتيبة فرحاً برسالة يزيد لكنه سرعان ما أدرك -وهو يستمع إلى ما أذاعه الرسول من أخبار حول الأعطيات والإن بالقفول- أن "هذا الرسول قد أغرى به الناس"^(٣٨) وهو ما يتفق مع رواية البلاذري في اعتقاد قتيبة إعلان الخليفة تدبيراً عليه، فزاد معسكره تخلخلاً، وباستثناء الإيغال بالجند إلى فرغانة كواقع يبدو صعباً تصديق باقي الرواية، مع ذلك فإن فيها صدى يعكس فزع الخليفة من حركة الابتعاد بالجند إلى فرغانة.

هذا القدر من رواية ابن أعثم التي ينفرد بها عن سائر المصادر تبين موقفين أساسيين للخليفة سليمان تجاه قتيبة وهما العزل واتخاذ إجراءات لتفريغ معسكره من الجند بالإعلان عن حق العودة من فرغانة لمن أراد، وهي كما نرى تتناقض جزئياً مع رواية البلاذري التي تثبت التولية وتتفق في الجزء الآخر الذي يشير إلى إجراءات التفريغ. ثم يبدأ ابن أعثم بعد ذلك ودون تمهيد إلا بكلمة، قال: يبدأ رواية أخرة وهي المنسوبة إجمالاً لأبي مخنف والشائعة في معظم المصادر كالطبري، وابن الجوزي وصاحب العيون والحدائق، وابن خلكان والتتويري، وغيرهم، وهي التي أخذ بها أيضاً المؤرخون القدامى والمحدثون، وتفيد دون المقدمات المهمة التي انفرد بها ابن أعثم، أن قتيبة بن مسلم أدار خيارات ثلاثة في رأسه توقعها من الخليفة سليمان وكتب كتباً

ثلاثة بناءً على ذلك. في الكتاب الأول تهنئة بالخلافة وعزاء بأخيه الوليد: وعرض بالطاعة لسليمان إن هو لم يعزله، أي أن قتيبة يشترط البقاء في ولايته ليعطي للخليفة طاعة كالتى أعطاها سلفه، وفي الكتاب الثاني ذكر قتيبة فتوحاته العظيمة وبلاءاته فيها، كما ضمن الكتاب ذماً لآل المهلب ويميناً لئن استعمل الخليفة يزيداً على خراسان ليخلعه، أما الكتاب الثالث فقد ضمنه خلع الخليفة، أي عدم الاعتراف بخلافته وبالتالي الاستقلال بخراسان، وما فتح من بلاد. وتذكر الرواية أن هذه الكتب الثلاثة بعثت للخليفة مع رجل من باهلة، وكان قتيبة كما تفيد الرواية قد تصور مشهد المقابلة مع الخليفة سليمان في دمشق وأنه سيكون بحضرة يزيد، فطلب من رسوله أن يعطي الخليفة الكتاب الأول فإن قرأه وألقاه إلى يزيد بن المهلب فأعطاه الثاني، ثم الثالث إن دفع الثاني إلى يزيد أيضاً، أما في حال عدم دفع الكتاب الأول إلى يزيد فليحتبس باقي الكتابين عنده. ثم تذهب الرواية في تصوير الموقف في دمشق كما رسم حيث انتهت خيول الفتح من فرغانة، وتجعل سليمان يستقبل رسول قتيبة في حضرة يزيد ويقرأ الكتب الأول ويدفعه إلى يزيد كما يدفع الثاني أيضاً إليه، ثم يقرأ الثالث الذي فيه الخلع فيتغير لونه^(٣٩). وينقل الطبري عن مجموعة من الرواة رواية أخرى منسوبة لأبي عبيدة معمر بن المثنى يذكر فيها وجود ثلاثة كتب من قتيبة لكن بمضامين تختلف عما ذكرته الرواية الأولى. ففي الكتاب الأول وقية في يزيد بن المهلب، وفي الثاني ثناء على يزيد، وفي الثالث تهديد بخلع الخليفة خلع النعل وبحشد الخيل والرجال ضده إن لم يقره الخليفة على عمله^(٤٠).

ومن العسير تقبل هذا التصوير المسرحي العالم بالغيب والمتحقق بحذافيره. أما أن يكون قتيبة قد ضمن كتبه تهديداً للخليفة بالخلع، فأمر غير متوقع عند أخذ طبيعة معسكر قتيبة في الحسبان، بل أن تحسين العلاقة مع سليمان ومحاولة استرضائه وقد صار الخليفة هو الأولى، وهو ما يمكن أن نتصوره في مثل هذه الظروف، وهو الذي تضمنه كتاب التهنة الذي أورده ابن أعثم، وقد تحدثت الرواية عن هذا الاسترضاء في

واحد من الكتب لولا أنه ختم بتهديد بالخلع إن لم يولّه الخليفة وفضل بدلاً عنه يزيد، ويبدو أن هذه التهديدات دسائس باطلة ومن زيادات الرواة خاصة وأن مضامين الكتب لا ترد بنصوصها بل بالرواية، وغياب نصوص مراسلات مهمة بهذا القدر، إنما يشير إلى عدم وجودها أصلاً، خاصة مع وجود ردّ الخليفة الوارد في برواية ابن أعثم بالنص، وهو ما يشهد على بطلان ما يروى هنا من مضامين فيها التهديد والخلع زد على ذلك أن الطبري يورد روايتين متناقضتين بشأن موقف قتيبة من يزيد حيث نجد في الرواية الأولى تحذيراً من استعماله بدلاً منه وفي الرواية الأخرى حديثاً عن كتابين يحملان موقفين متضادين من يزيد، حيث كان الأول وقية به، وكان الثاني ثناء عليه. أما موقف الخليفة من هذه الكتب حسب هذه الرواية فيرد كالتالي: يذكر الطبري أن الخليفة كافأ حامل الكتب بصرة من المال وأقرّ قتيبة على خراسان وأرسل له عهداً بذلك مع رسول من قبله^(١١). لكن عهد التولية، كما تذكر رواية الطبري، وصل بعدما أعلن قتيبة الخلع فاضطرب الأمر، أما رواية ابن أعثم المتصلة بالكتب الثلاثة فتصور رسول الخليفة سليمان عائداً بالعهد من حلوان بعد علمه بخلع قتيبة، وأن رسول قتيبة أخبر قتيبة بعد عودته بأنه كان أتى بعهد الولاية، ثم عندما سمع رسول الخليفة بخلعك عاد إلى صاحبه بالعهد وعندها كما تصور الرواية ندم قتيبة على ما عزم عليه من الخلع والعصيان^(١٢)، وهكذا نقف ثانية أمام روايتين كلاهما يثبت التولية أول الأمر لكن إحداها تجعل العهد يصل بعد الخلع ويحدث الاضطراب، أما الثانية فتجعل التولية أمراً لاغياً بعد علم رسول الخليفة بخلع سليمان، فإذا أضفنا إلى هاتين الروايتين رواية ابن أعثم الأولى عن العزل المؤيد بنص كتاب نكون أمام روايات مضطربة حيث بعضها يثبت التولية وبعضها يثبت العزل مع غياب أي ترمين لهذه المواقف ضمن الشهور الستة الفاصلة بين خلافة سليمان منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ، ومقتل قتيبة في ذي الحجة من العام نفسه.

ونحن نعتقد أن الخليفة سليمان قد تعامل مع موضوع قتيبة بحذر وتأن شديدتين، وللاقترب من موقفه الحقيقي وسط هذه الروايات المضطربة لا بد من النظر إلى موقف الخليفة سليمان تجاه قتيبة كجزء من موقفه الكلي تجاه العراق، بل وكل المشرق وهو المجال الجغرافي الذي كان يقع تحت مسؤوليات عدوه اللدود الحجاج بن يوسف. وقد سهل الأمر على الخليفة سليمان في العراق بعد موت الحجاج فتمكن عبر واليه يزيد وببسر من إزاحة أعوان الحجاج، بل والانتقام منهم^(٤٣)، كما تخلص ببسر من فاتح الهند والسند محمد بن القاسم الثقفي، والذي أخذ أسيراً ومات في سجنه^(٤٤). أما قتيبة فقد كان ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار انتصارات الرجل وفتوحاته العظيمة فيما وراء النهر وما يقع تحت يده من قوة ضاربة، ثم وجوده بعيداً عن متناول يد سليمان من الناحية العسكرية، وبالتالي إمكانية تمرده بنجاح، كما فعل قبله بسنوات ليست بعيدة ابن الأشعث وما رافق ثورته ضد الحجاج والخليفة الوليد من حروب ودماء في ديار الجماجم أزهقت الرواح وهددت هيبة الخلافة وشرعيتها في العراق، بل وكل المشرق^(٤٥). فإن رجحنا الروايات التي تتحدث عن تثبيته والياً لخراسان لكل تلك الاحتمالات فسيبدو الأمر منطقياً، لولا إننا لا نجد أثراً لهذه التولية في مسرح الأحداث التالية كما سنرى، بالإضافة إلى اضطراب الروايات نفسها، بل إن ربط الروايات بين التولية وأمر الخليفة بالإعلام الجهري عن الإذن للناس بالعودة وإخراجهم من السجون ومنحهم أعطياتهم ورؤية قتيبة لهذا الأمر تدبيراً من قبل الخليفة ضده، ثم إصراره على منع الناس من العودة، ليشهد على أن التولية لم تتحقق وإلا لسقطت الحاجة إلى إعلان عن الإذن بالعودة ولكان قتيبة نفسه قرر العودة إلى مرو بعد زوال مبرر الإيغال إلى فرغانة بالتولية، كما أن غياب أي نص رسمي يثبت التولية يزيد من وجهة النظر هذه وجاهة خاصة مع وجود نص كتاب العزل لا يختلف عن المكاتبات المألوفة لذلك الوقت. والراجح أمام ذمة الموقف وخوف الخليفة من تمرّد قتيبة -أن الخليفة قد أشاع رغبته في إقرار قتيبة على خراسان لثنيه عن أي تمرّد محتمل، كما

أشاع عبر أعوانه وعيونه إذنه للناس بالعودة من الغزو ومنحهم أعطياتهم لإفراغ معسكر قتيبة من مادة التمرد، كما لا بدّ من ترجيح أن الخليفة سليمان لم يعجل في أمر قتيبة، وأخذ يتعرف أكثر وأكثر على طبيعة معسكر قتيبة حتى اطمأن من رسول قتيبة ومن ابن الأهم ومن عيونه^(٤٦) بأن قتيبة، وبسبب تغير موازين القوى في مركز الخلافة وظهور التناقضات القبلية في معسكره وتبرم الجند منه بسبب منعهم من العودة والاستقواء عليهم بمواليه الأعاجم، غير قادر على قيادة تمرّد ناجح في موضعه. ولما تأكد الخليفة من ذلك قرّر عزل قتيبة برفق أيضاً مسبباً العزل بالرغبة في إسدال الستار على زمن الحجاج وبطشه، أي أنه حتى في قرار العزل كان ما يزال في غاية الحكمة والحذر والرغبة في طمأنة قتيبة إلى مصيره. ثم تأتي خطبة قتيبة التي سنستعرضها بعد قليل لتؤكد على بطء إجراءات الخليفة تجاه قتيبة حيث لم ينتظر ردّ الخليفة على تهنيئته له، بل استعجل معرفة موقف الجند من هذه الأزمة، فجرت الأحداث بعدئذٍ في معسكر قتيبة في غياب أي موقف رسمي من قبل الخلافة، لأننا لا بد أن نرصد موقفاً واحداً للخليفة تجاه قتيبة لا أكثر، إما التولية وإما العزل، ونحن نرى العزل الذي قرره الخليفة بعد طول نظر. وكتاب العزل المثبت بنصه عند ابن أعثم هو الذي نرى أنه كان في الطريق إلى خراسان فوصل بعد مقتل قتيبة أو استرد فخفت لذلك أثره في الميدان وفي الروايات ولم يثبت إلا ابن أعثم، لأنه بدا لأعوان الخليفة، كما نرى، إن إشاعة الخلع والتولية معاً بعد مقتل قتيبة أوفق للأحداث، لإظهار قتيبة مستحقاً للقتل بسبب خلعه الخليفة الذي ولّاه ثانية رغم ما أسلف منه ضده.

هذا هو لسان الحال الذي نتصوره في المعسكر السعادي لقتيبة، ووجد طريقه إلى التكوين فغلب، بسبب طبيعة الإرجاف، على رواية العزل مؤيدة بالنص، وهو شأن الحقائق التي تبقى يتيمة وسط الإشاعات التي يطلقها الخصوم وتشيع متلوثة متضاربة تماماً كما يحدث في زماننا هذا. وبهذا نكون قد حررنا المسألة الأولى عن العزل

والتولية. أما المسألة الثانية وهي تهمة الخلع التي أطلقت هي الأخرى ضد قتيبة كمبرر لقتله فهو ما سنستعرضه في السطور التالية بالمناقشة والتحليل.

خطبة قتيبة:

يورد الطبري رواية منسوبة لغير واحد من الرواة فيهم أبو مخنف وفيها: "أن قتيبة لما هم بالخلع استشار إخوته فقال له عبد الرحمن اقطع بعثاً فوجه فيه كل من تخافه ووجه قوماً إلى مرو، وسر حتى تنزل سمرقند، ثم قل لمن معك: من أحب المقام فله المواساة، ومن أراد الانصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء، فلا يقيم معك إلا مناصح. وقال له عبد الله: اخلعه مكانك، وادع الناس إلى خلعهم. فليس يختلف عليك رجلان. فأخذ برأي عبد الله، فخلع سليمان، ودعا الناس إلى خلعهم فقال"

وقبل أن نورد الخطبة نحب لفت الانتباه إلى أن مفردة الخلع وردت في الرواية بعاليه أربع مرات. في الرواية يبرز أيضاً بوضوح قلق قتيبة مما سيقدر الخليفة بشأنه، وقد شارك الأخوان في هذا القلق، لكنهما اختلفا في كيفية مواجهة الموقف كما مرّ بنا.

جمع قتيبة الناس وألقى فيهم الخطبة التالية كما يوردها الطبري:

"إني قد جمعتكم من عين التمر وفيض البحر فضمنت الأخ إلى أخيه، والولد إلى أبيه، فقسمت بينكم فينكم، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدره ولا مؤخرة، وقد جريتم الولاة قبلي، أتاكم أمية فكتب إلى أمير المؤمنين إن خراج خراسان لا يقوم بمطبخي، ثم جاءكم أبو سعيد فدوم بكم ثلاث سنين لا تدرون أفي طاعة أنتم أم في معصية! لم يجب فيئاً، ولم ينكأ عدواً، ثم جاءكم بنوه بعده، يزيد، فحل تبارى إليه النساء، إنما خليفتم يزيد بن ثروان هبنقة القيسي^(٤٧).

هذه هي الخطبة المنسوبة لقتيبة في رجال القبائل المؤلفة لحبيشه، وليس فيها كما نرى خلع للخليفة، بل مقارنة بينه وبين الولاة قبله، وفي رواية ابن أعثم لهذه الخطبة هناك

زيادة مهمة وهي "وإنما خليفتمك يزيد بن ثروان هبنقة القيسي، بل هو أحقق منه، وأقل عقلاً من باقل^(٤٨)". وقد رأيتكم عدلي فيكم وإنصافي إياكم فهاتوا ما عندكم". والعبارة الأخيرة هي أهم ما في هذه الزيادة لأنها تشرح بوضوح أن قتيبة لم يخلع وإنما قصد تذكيرهم بفضائله تجاههم، وهو ما يعني أن قتيبة إنما أراد الحصول على دعم جنده لإقناع الخليفة بأنه الوالي المتفق لبيقيه والياً على خراسان كملاذ وحيد مما ينتظره من عقاب، وقد يكون في هذا استعراض للقوة بتعبيرات عصرنا لو أن القبائل دعمته، وأن مثل هذا الدعم يشبه أن يكون تهديداً بالتمرد إن لم يثبتته في ولايته، كما لا يمكن استبعاد ورود مثل هذه الفكرة عن تفكير قتيبة، لكن خطبته أبانت أنه لم يعلن الخلع الذي أشيع عنه، كما أبانت أنه يعتمد في معالجة علاقته بسليمان على موقف القبائل منه، وأن هذا الموقف هو الحاسم أياً كان القرار الذي يتخذه، أي أن فكرة الذهاب إلى سمرقند والتحصن بها كما رأى أخوه غير قابلة للتنفيذ أيضاً إن كانت القبائل أو بعضها لن تدعم تلك الفكرة. وحول إشارة قتيبة إلى أن خليفته هو يزيد بن ثروان، المضروب به المثل في الحمق^(٤٩)، نقول إن هذه قد تكون قناعة قتيبة في الخليفة سليمان إن صحت نسبتها إليه، لكنها قناعة تفيد الإقرار بالخلافة لا بالخلع. ومن الناحية الشكلية نرى أن خطبة يمهد فيها لخلع خليفة تتكون من بضع عبارات لحري أن يشك بها، فالخطبة في اللغة تستحق هذا النعت لقولها مطولة في جمهرة من الناس، لكن مفهوم الخطبة لن يكتمل إن ألحقنا النص السابق القصير بما جاء بعده من حديث لقتيبة بعدما روي أن أحداً لم يجبه إلى خلع الخليفة، والواقع أن أحداً لم يجبه إلى ما طلب من مؤازرة لبيقي والياً، فغضب وأخذ يسب القبائل واحدة واحدة:

"لا أعز الله من نصرتم، والله لو اجتمعتم على عز ما كسرتم قرننا، يا أهل السافلة - ولا أقول أهل العالية- يا أوباش الصدقة، جمعتمكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب، يا معشر بكر بن وائل، يا أهل النفخ والكذب والبخل، بأي يومكم تفخرون؟ بيوم حربكم أو بيوم سلمكم! فوالله لأنا أعز منكم. يا أصحاب مسلمة- يا بني زميم- ولا

أقول تميم - يا أهل الخور والقصف والغدر، كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان. يا أصحاب سجاح، يا معشر عبد القيس القساء، تبدلتم بإبر النحل أعنة الخيل، يا معشر الأزدي، تبدلتم بقلوس السفن أعنة الحصن، إن هذه لبدعة في الإسلام! والأعراب، وما الأعراب! لعنة الله على الأعراب! يا كناسة البقر والحرر في جزيرة ابن كاوان، حتى إذا جمعتكم كما تجمع قزع الخريف قلتم كيت وكيت! أما والله إنني لأبني أبيه! وأخو أخيه أما والله لأعصبنكم عصب السلمة. إن حول الصليان الزمزمة. يا أهل خراسان، هل تدرون من وليكم. وليكم يزيد بن ثروان، كأني بأمر مز جاء، وحكم قد جاءكم فغلبكم على فينكم وأظلالكم. إن هاهنا ناراً أرموها أرم معكم، ارموا غرضكم الأقصى. قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات. إن الشام أب مبرور، وإن العراق أب مكفور، حتى متى يتبطح أهل الشام بأفئيتكم وظلال دياركم! يا أهل خراسان، انسابوني تجدوني عراقي الأم، عراقي الأب، عراقي الهوى والرأي والدين، وقد أصبحت اليوم فيما ترون من الأمن والعافية قد فتح الله لكم البلاد وآمن سبلكم، فالظفينة تخرج من مرو إلى بلخ بغير جواز فاحمدوا الله على النعمة، وسلوه الشكر والمزيد^(٥٠).

وقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين مجموع الكلام الوارد هذا عند الطبري كخطب ثلاث مستقلة عن بعضها، وليس ثمة فرق في الجوهر بين ما أورده الجاحظ وما أورده الطبري، لكن التمهيد للخطبتين التاليتين بعبارة "وخطب مرة أخرى" تفيد وقوع الخطب في فترات زمنية متباعدة وهو ما يتعارض مع جوهر الخطب الثلاث الوارد عند الطبري كخطبة واحدة. وقد قدم الجاحظ الخطبة الأولى بالعبارة التالية عن قتيبة "قام بخراسان خطيباً حين خلع فقال"^(٥١) (الخطب).

الغريب أن موقف قتيبة من ولادة عهد سليمان، باستثناء إشارة في بيت من الشعر عند ابن أعثم^(٥٢). تهمل تماماً في معرض الحديث عن تطورات الأوضاع في معسكر قتيبة، وتستخدم بدلاً من ذلك تهمة خلع قتيبة لسليمان كخليفة في خطبة مشهورة في

معسكره وكأن قتيبة حتى ذلك الحين كان معترفاً بشرعية سليمان، بينما قتيبة لم يعد من الناحية الشرعية ملزماً بطاعة من خَلَعَ قبلاً عن ولاية العهد، وأنه والحال هذه يعدّ معزولاً تلقائياً عن ولايته، إلا بتجديده الطاعة للخليفة وقد فعل قتيبة ذلك كما مرّ بنا وبقي قبول الخليفة ذلك منه، وهو أمر لم تناقشه الروايات مطلقاً لكننا نستطيع أن نقرر أن هذا الوضع بالذات، أي شرعية ولاية قتيبة لخراسان بعد صعود سليمان سدة الخلافة، كان لسان حال معسكر قتيبة كله، والروايات وإن لم تذكر هذا الأمر صراحة فإنها تدور في جلّ أخبارها حول معالجاته من قبل قتيبة والقبائل المشكلة لمعسكره، ويكفي ما شاع من شعر دليلاً على ذلك^(٥٣). ولا بدّ من إبراز هذه المسألة هنا لبيان أن تهمة خلع قتيبة لسليمان بعد أن صار خليفة لم تكن سوى الدعاية التي أشاعها قائلوه لتبرير ما فعلوا كما سنرى في السطور التالية.

وما دمنا قد رجحنا صحو العزل بناء على نص الكتاب الموثب عند ابن أعثم وأنه الموقف الوحيد للخليفة من قتيبة، فإن ما سيثبت لنا أيضاً في السطور التالية هو أن هذه الخطبة وما تلاها من أحداث وقعت في غيبة أي موقف رسمي ومعلن من قتيبة وولايته في ميدان الحدث فرغانة، وبالتالي لا بدّ من القول إن قتيبة ألقى خطبته بعد أن أرسل كتاب التهنية إلى سليمان وقبل أن يتسلم الردّ منه ولمعرفة المواقف سلفاً قبل أن يأتي ردّ الخليفة ليحسن اتخاذ قراره، ولو كان أمر العزل قد فشى لرأينا مواقف القبائل تتشكّل بناء على ذلك ولجرت الأحداث على نحو آخر، خاصة وقد سبقت الإشاعات عن رغبة الخليفة زيادة العطاء والإذن بالقول لمن أراد من العسكر، لاسيما وقد أكرهوا على التوجه إلى فرغانة أولاً ومنعوا من العودة ثانياً واستقوى قتيبة عليهم بالأعاجم ثالثاً، وكانت هذه الأمور هي ما نقم معظم الجند على قتيبة بسببها كما ذكرت رواية البلاذري السالفة وابن أعثم^(٥٤).

والملاحظة البارزة التي نود التأكيد عليها والمستندة إلى النص الذي بين أيدينا هي أنه قد حمل على القبائل العربية المؤلفة لجيشه، وخاطب أهل خراسان وهم الموالي أو

الأعاجم بلهجة أخرى، وسنرى أنهم كانوا سندده وقوته، يؤيد ذلك عبارة يوردها اليعقوبي كجزء من الخطبة وهي " والله لأننا بمن معي من العجم أعز منكم^(٥٥)، يقصد باقي القبائل العربية. والمهم هنا أن لا دليل لفظي في الخطبة يفيد الخلع، وإنما طلب قتيبة ضمناً للتأييد لبقائه والياً على خراسان، وهنا تظهر التناقضات الكامنة في جيشه ولا يجد قتيبة حماساً لمطلبه خاصة والقبائل المكونة لجيشه تعلم ما سلف من قتيبة ضد سليمان، وكان تقاعس القبائل عن نصرته في هذه اللحظة الحرجة هو المبرر المفهوم ليتحول قتيبة إلى السب والشتم على النحو الذي مرّ بنا. كما أن خلّو الخطبة ورد الفعل من صدى لعزل قتيبة يؤكد ما ذهبنا إليه من غياب الموقف الرسمي للخليفة حتى الآن.

وهناك رواية يتيمة تغلب الصورة الغالبة عن خلع قتيبة لسليمان رأساً على عقب، وهي ترد في سياق محاولات يزيد بن المهلب تشويه صورة قاتل قتيبة وكيع بن أبي الأسود التميمي الذي تجمع حوله خصوم قتيبة وترغم الانقلاب ضده وصار والياً لخراسان بالتغلب كما سنرى. وقد أراد يزيد ثني الخليفة عن إصدار مرسوم خلافي لتثبيت وكيع رسمياً في ولاية خراسان لتصفو له فاستعان بعبد الله بن الأهمم التميمي والذي فرّ من معسكر قتيبة بعد علمه بخلافة سليمان وتوجه إلى الشام فأخذ قتيبة، انتقاماً منه، مجموعة من أهله فقتلهم وسجنهم^(٥٦). وتذكر رواية أخرى أنه فرّ إلى الشام وتخفى هناك بسبب محاولته الدس على قتيبة عند الحاج وعلم قتيبة بذلك من طرف الحاج، فلما لم يجد قتيبة ابن الأهمم، أخذ بني عمه وبنيه فقتل تسعة منهم، وأوغر بذلك صدر ابن الأهمم، فلما مات الوليد وصعد سليمان ظهر ابن الأهمم وهناه بالخلافة وتحدث إلى سليمان بكل قبيح عن قتيبة والحجاج^(٥٧). وقصة قتيبة مع ابن الأهمم تلقي ضوءاً على طبيعة معسكر قتيبة، وكيف أن الخصومات الكامنة ستجد لها الآن، وبعد تغير موازين القوى في مركز الخلافة، متفجراً. وقد لعب ابن الأهمم هذا دوراً في الأحداث كبيراً، فعوضاً عن أنه اطلع الخليفة على طبيعة معسكر قتيبة وزاد في إيغار صدر الخليفة

عليه، قام أيضاً بتنفيذ ما طلب منه يزيد بن المهلب، وهي أن يعيب وكيعاً، قاتل قتيبة، عند الخليفة كي لا يوليه خراسان رسمياً. وقد وعده يزيد بمائة ألف درهم مكافأة إن فعل ذلك..

في سياق هذه الرواية المنسوبة لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ترد جملة هي "وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع"^(٥٨). ولا بد من منح هذه الرواية على يتمها أو بسبب يتمها، قدراً من الاهتمام بسبب دلالاتها، ففيها أولاً إشارة إلى الانقلاب الحاصل في موازين القوى وأن قيساً الآن قد خرجت من مفاصل السلطة الأموية وأفسحت المجال لليمانية ممثلة بشخص الأبرز فيهم يزيد بن المهلب وهو التناوب المألوف والدموي أحياناً مع الأسف. والإشارة إلى أن قيساً تزعم، يعني أن الخلع تهمة ألصقتها خصوم القيسية بقتيبة كتبرير لإزاحته، ويبدو أن قيساً أخذت تدافع عن مواقعها ومواقفها في خلافة سليمان وكأن خلع قتيبة المزعم لسليمان قد فهم أنه موقف لقيس كلها، كما يبدو أن ركود غبار قتيبة أفسح المجال لصوت آخر يعلو وهو الصوت الذي ينكر تهمة الخلع الملصقة بقتيبة، وقد كان متواصلاً لدرجة أن الخليفة سليمان يرضخ ويأمر يزيد بن المهلب واليه على العراق أن يتحقق من الأمر قائلاً: "إن أقامت قيس البينة أن قتيبة لم يخلع فينزع يداً من طاعة، أن يقيد وكيعاً به"^(٥٩). أي أن الخليفة سليمان، وفي محاولة منه لاسترضاء قيس قد أراد إظهار صورة أخرى تجاه قتيبة، فأوكل إلى يزيد مهمة التحقق من أقوال قيس في براءة قتيبة من الخلع، وقد أدت تبدلات المصالح إلى الاهتمام بهذه الفكرة، لأن من مصلحة يزيد الآن وقد ذهب خصمه قتيبة أن يثبت هو الآخر براعته من الخلع ليطيح بوكيع من خراسان لتصفو له. وهناك شاهد أساسي وقوي على أن تهمة الخلع كانت باطلة وأنها ألصقت بقتيبة إصاقاً، هذا الشاهد هو عبد الله بن الأهم نفسه، فبحسب رواية معمر بن المثنى فإن يزيد بن المهلب لم يف للرجل بالمائة ألف درهم الذي وعد فأحب ابن الأهم أن يصعب مهمة يزيد في تبرئة قتيبة من الخلع، خاصة وقد حاز يزيد على ولاية خراسان وأرسل إليها ابنه مغلداً،

فذهب ابن الأهمم إلى رجل حبسه مخذ وأراد منه إخراج كتب زعم أن رجليْن من أعوان قتيبة هما القعقاع بن خلود العبسي وخريم بن عمر المري كتبها إلى قتيبة في خلع سليمان^(١٠)، لكن الرجل أنكر الأمر ورأى في الإقرار بهذا الأمر خديعة عن دينه، فما كان من ابن الأهمم إلى أن زور كتباً على لسان من ذكر لكنه كُشف، وهذا يعني أن ادعاء وجود كتب بهذا المعنى من بعض رجال قتيبة غير صحيح، وحتى مع افتراض صحة وجود الكتب فإن هذا ليس دليلاً على خلع قتيبة لسليمان، بل على وجود الفكرة عند بعض قواده البعيدين فكتبوا إليه بذلك.

والخلاصة المهمة هي أن فشل ابن الأهمم في تلفيق خلع قتيبة لسليمان نكاية بيزيد بن المهلب تنفي عن قتيبة تهمة الخلع التي ألصقت به كمبرر لقتله. لقد كان قتيبة يعي ضعف موقفه بسبب خلعه سليمان من ولاية العهد، كما كان يعي أيضاً أثر موقفه هذا على معسكره ونستطيع لذلك أن نتصور أن ما كان يهمه في المقام الأول ليس زيادة سخط الخليفة عليه بالخلع، بل الحصول إلى دعم القبائل الأخرى في معسكره لاستمرار ولايته، لأنها الملاذ الوحيد مما ينتظره من مصير. أما القبائل التي تعي موقف سليمان من قتيبة فقد قدرت أن نجم قتيبة بصعود سليمان خليفة قد أفل، لكنها اختلفت في المواقف من قتيبة وسليمان كما سنبين.

مقتل قتيبة:

رجحنا براءة قتيبة من تهمة خلعه للخليفة سليمان بعد صعوده خليفة في الخطبة التي نسبت إليه، ورجحنا أن حاجة قتيبة الملحة لإنقاذ نفسه من غضب سليمان القادم هي أن يتأكد أن رغبته في البقاء والياً لخراسان مسنودة من القبائل التي تؤلف جيشه الظافر، لكن القبائل هي الأخرى، وهذا أثر بارز من آثار سلطة المركز على الأطراف، أثرت أن لا تعصب مركز الخلافة بالانضمام إلى قتيبة ودعم ولايته، لأن هذا سيفهم بالضرورة على أنه دعم لمواقف قتيبة من سليمان السابقة، كما أن دعم

قتيبة يشبه أن تمرداً على الخلافة، وهو تمرد تُخشى عواقبه بعدما جرى لتمرّد ابن الأشعث ضد الحجاج قبل سنوات من هذا التاريخ، لكن الأكيد أن قتل قتيبة لم يكن غيراً على سلطة الخلافة بخلعه طاعتها كما ذهبت إلى ذلك الكتابات المعاصرة، بل لتوفر حزازات شخصية راكمها قتيبة على نفسه في السنوات العشر المنصرمة بالإضافة إلى عدم منح الأعطيات للجند والسماح بالقول لمن أراد، واتهامه بالغدر^(١١)، والاستظهار على العرب بالأعاجم^(١٢)، ثم الشتم الذي كاله للقبائل في خطبته ولم يستبق منها أحداً. كل تلك الأمور لعبت دوراً في تقاعس القبائل أو أهمها عن نصرته وحارث في أمره، وكانت النتيجة بالنسبة لقتيبة هي أن النصره التي أملها في معسكره لم يجدها، فإن كانت قبائل جيشه التي خبرته عشر سنوات قد تقاعست عن تأكيد ولايته لخراسان في هذه اللحظة التاريخية الحرجة. فإن هذا كما أشرنا سلفاً هو المبرر الوحيد المفهوم لينتقل قتيبة مرة واحدة إلى الهجوم على القبائل على النحو الذي مرّ بنا، وهو بهجومه ذاك كان يطلق صرخة يأس أخيرة وإلا عدّ أخرقاً إن كان يستدعي رجال جيشه بهذه البساطة، لكن كيف يكون أخرقاً من قاد هذا الجيش بنجاح ملفت طوال عشر سنين واتصفت بالشجاعة والجدود ودمائة الأخلاق وحسن الرأي^(١٣)، وبالحزم والنبيل والفصاحة^(١٤)، وكيف يكون أخرقاً من رآه أهل تلك الجهات المفتوحة قطباً مستجاب الدعوة وقامت له في قلوبهم هيبة قلّ أن تداني^(١٥)، بل إن قبره كما يذكر النرشخي (ت ٣٤٨هـ)، صاحب تاريخ بخارى مشهور مزار^(١٦). لكنه يقين القائد بمواقف جيشه ويقين القائد من ثقافة الانتقام السائدة. وهناك رواية يوردها ابن أعم، تعزز ما أورده البلاذري، تبين الوضع الذي تلى الخطبة التي شتم فيها القبائل، وهي أن القبائل وإن كانت على وعي بما بين قائدها وبين الخليفة سليمان، إلا أن الموقف من قتيبة قد حكمه الإيغال بالجند إلى فرغانة ومنعهم من العودة، والاستقواء عليهم بالأعاجم ومنعهم من العطاء، ويبدو أن رغبة العودة إلى مرو كانت في مقدمة المطالب الملحة للقبائل التي أرادت إذناً بالعودة ولا دخل لها بالباقي "وهو أعلم بعد

ذلك إن شاء فليخلع سليمان بن عبد الملك وإن شاء فليسمع ويطلع، فإن هو لم يأذن لنـ... فلا يلومن إلا نفسه^(٦٧)، ومع ذلك فإن ظروف مقتله تكشف المواقف التفصيلية للقبائل من أمر قتيبة وصلته بمركز الخلافة، ولمعرفة ظروف مقتله لا بد من البحث داخل التركيبة القبلية لجيشه وفي ضوء السياسات العامة المتبعة من خليفة لآخر، حيث كانت هذه السياسات ذات الطبيعة العصبية تؤدي إلى ظهور خلاف هنا وكمون آخر هناك وحسب موازين القوة، وستلعب هذه السياسة دوراً في تحديد مصير قتيبة بعد قليل.

ففي ما يتعلق بالقبائل المؤلفة لجيشه نود إلقاء نظرة على الجدول التالي وفيه أسماء القبائل المؤلفة لجيش قتيبة وأعدادها كما أوردها الطبري:

اسم القبيلة	عدد أفرادها	رئيس القبيلة
الأزد	عشرة آلاف	عبد الله بن حوذان
تميم	عشرة آلاف	ضرار بن حصين الضبي
أهل العالية من أهل البصرة	تسعة آلاف	غير مذكور
بكر بن وائل	سبعة آلاف	الحضين بن المنذر
الموالي	سبعة آلاف	حيان ويكنى بالنبطي .
عبد القيس	أربعة آلاف	عبد الله بن علوان عودي

هذا الجدول يبين أن قبائل تميم الحضرية والأزد اليمنية هي أكثر القبائل عدداً في جيش قتيبة يتلوها أهل البصرة، وهم أخلاط قبائل، أما أقل القبائل عدداً فكانت عبد القيس من ربيعة، ومن جهة أخرى فإنه باستثناء قبائل الأزد اليمنية، فإن باقي القبائل مضرية، من قيس وربيعه ويتبعهم الموالي، كما أن القبائل من جهة ثالثة تنحدر من العراق ومحيط العراق، وقد اتكأ قتيبة بقوة في الخطبة المروية بعالية على هذه الحقيقة بعد أن عنف على القبائل وأشار إلى أنه عراقي الأم والأب والمولد واليهوى

والرأي، أي أنه أراد أن يجعل الوقوف معه جزءاً من الواجب القبلي لأهل العراق، كما حاول استثارة همهم لمقاومة أهل الشام المستيحيون للعراق ودياره كما قال، ولعل أهم ملاحظة لا بد من تسجيلها هنا هي أن الرواية التي أحصت القبائل في جيش قتيبة لم تذكر قبيلة باهلة وهي القبيلة القيسية التي ينتمي إليها قتيبة بن مسلم الباهلي، وهذا يعني ببساطة أن قتيبة طوال سنوات ولايته وحربه لم يكن يعتمد على قبيلة قوية تعزز قيادته كما هو المؤلف عموماً، لكنه كان يعتمد على سند آخر قوي كما ذكرنا هو الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق والمشرق، ثم اعتمد على سند آخر أقوى هو الخليفة الوليد بن عبد الملك، والذي أدرك حرج موقف قتيبة فعززه بكتاب أسلفنا ذكره، خاصة وقد قبل قتيبة أن يبايع لابنه عبد العزيز ولياً للعهد بدل أخيه سليمان، لكن الروايات التي أسلفنا الإشارة إليها تذكر أنه يتقوى بالعجم، أي الموالي، ومن الأكيد أنه قد جعلهم عصبته والأقرب إليه، كما لا بد أن نجد أفراداً من قبيلة باهلة ضمن المجموعة التي وردت في الإحصاء بلا زعيم وهم أهل البصرة وهم أخلط من قبائل متعددة غير ذات وزن بين القبائل الكبيرة، وفيهم بنو عامر الذين حاول قتيبة عبثاً الاستئجار بهم يوم الوقعة، وربما كان ضمن أهل العالية من البصرة أفراد من باهلة لو اتكأنا على ما ذكره العلي في تنظيماته لزمن أقدم^(٦٨)، ولا شك أن أفراداً من قبيلته باهلة قد لازموه وخاصة أقرباءه وإخوته، ومكنهم من مناصب الولايات ورئاسة الشرطة، لكن الأمر كان يجاوز التمثيل العددي هنا إلى صورة القبيلة ككل عند العرب، فقتيبة بن مسلم ينتمي إلى قبيلة يستكف العرب من الانتساب إليها، وتكثر حولها النوادر والنكات التي تظهر صورتها الدونية عند العرب^(٦٩)، وقد كان قتيبة كما يذكر صاحب ثمار القلوب، الذي عانى من صورة قبيلته عند العرب، أول باهلي يرفع عن القبيلة ما تداولته العرب عنها من لؤم في الجاهلية والإسلام، ويمنحها شرفاً كبيراً عبر انتصاراته المتكررة^(٧٠)، ومع ذلك فإن شرف هذه الانتصارات لم يشفع لقتيبة عند

أحد ولا تمكنت القبيلة من التهديد لو مسَّ قتيبة بسوء، وقد كانت من الضعف بحيث لا تقوى على الدفاع عن رجل في مثل ومكانة قتيبة.

ولا شك أن القبائل التي ذكرناها بعالية والمترعة بثقافة العدد والقوة تدرك كل هذه الحقائق وتدرك أن قتيبة بصعود سليمان بن عبد الملك خليفة قد فقد أركان قوته، فلا خليفة ولا قبيلة ولا حجاج.

ومع ذلك فلا بد من الحذر في رصد ردة فعل المبينة على إقذاع في حق القبائل كما صورت الخطبة المنسوبة إليه، بل سنرى أن الشتم الذي كاله قتيبة للقبائل بالفاظ الرواية أو غيرها قد مهد السبيل لحبك مؤامرة التخلص منه، لكن ليس من كل القبائل ولا حتى من بعض القبائل مجتمعة، كما سنرى.

يذكر الطبري أن القبائل غضبت من شتم قتيبة وكرهت خلع سليمان، فأجمعت على خلاف قتيبة وخلعه^(٧١)، وأن الأزد هم أول من تكلم في خلاف قتيبة، لرفضهم فكرة خلع سليمان وللشتم الذي لحقهم، وقد حسنا الموقف من مسألة الخلع في السطور السابقة، ويجب التعامل مع المفردة فيما سيأتي كصدى للدعاية الواسعة التي أعقبت مقتل قتيبة، أما دلالة أن تكون الأزد هي أول من يتكلم في خلاف قتيبة وخلعه عن الولاية، والبحث عن والٍ آخر بدل قتيبة، فلا تحتاج كبير جهد لتدرك أن الأزد قد رأت في صعود سليمان بن عبد الملك خليفة عودة لنفوذ اليمينية في الخلافة وهو النفوذ الذي أقصى لفترى طويلة أيام الخنيفتين هشام عبد الملك بن مروان، كما يبدو أن قتيبة قد أهمل الأزد في جيشه وجعلهم في آخر من يمنح ويعطي^(٧٢)، أضف إلى ذلك أن يزيد بن المهلب كبير المينية في بلاط الخليفة سليمان ينتمي إلى قبائل الأزد اليمينية، ولا شك أن هذه القبائل قد شهدت العزل المهين الذي لقيه يزيد قبل عشر سنوات على يد قتيبة حين عين بدلاً منه على خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم سجن آل المهلب وأرسلهم إلى الحجاج، أي أن قبائل الأزد بتحركها ضد قتيبة إنما تتجاوب مع خط السياسة الحديد في دمشق تملئها بداهة الأمور المنبقة عن أعراف القبيلة،

سيده الموقف الآن. ومع ذلك فإن موازين القوى في معسكر قتيبة لم تكن في صالح الأزد فهم القبيلة اليمنية الوحيدة، وتعدهم في العدد تميم وحدها، ناهيك عن الموالي وبكر بن وائل^(٧٣)، وسيظهر هذا الأمر جلياً في المشاورات التي بدأتها الأزد لإسقاط قتيبة.

ذهبت الأزد إلى حضين بن المنذر زعيم بكر بن وائل، من ربيعة، وتحدثت في أن الدعوة إلى خلع الخليفة فيه فساد الدين والدنيا، وأن قتيبة بذلك، بل صغره وشتمهم، وسألوه المشورة في ذلك^(٧٤). وهنا تبرز المعايير البديهة التي تتعامل بها القبائل العربية فيشير زعيم بكر مباشرة إلى أن مضر بخراسان كثيرة وتميم أكثرها^(٧٥)، أي أن تميم داخل معسكر مضر تشكل الأغلبية القيسية" وهم فرسان خراسان، ولا يرضون أن يصير الأمر في غير مضر^(٧٦)". ولا يستطيع الأزد عمل شيء إزاء هذا الواقع في معسكر قتيبة حتى مع تغير هوى الخلافة لصالح اليمنية، ووجود كبيرهم معززاً في مجلس الخليفة، وقد حاولوا أول الأمر تجاوز هذا الواقع وترييس زعيم الأزد عبد الله بن حوذان "قأبي، وتدفعوها، فرجعوا إلى حضين، فقالوا: قد تدافعنا الرئاسة، فنحن نوليك أمرنا، وربيعه لا تخالفك، قال لا ناقة لي في هذا ولا جمل، قالوا ما ترى؟ قال إن جعلتم هذه الرئاسة في تميم تم أمركم، قالوا فمن ترى من تميم؟ قال ما أرى غير وكيع، فقال حيان مولي بني شيبان: إن أحداً لا يتقلد هذا الأمر فيصلي بحره، ويبدل دمه ويتعرض للقتل، فإن قدم أمير أخذ بما جنى وكان المهناً لغيره، إلا هذا الأعرابي وكيع، فإنه مقدم لا يبالى ما ركب، ولا ينظر في عاقبة، وله عشيرة كثيرة تطيعه وهو مותר يطلب قتيبة برياسته التي صرفها عنه وصيرها لضرار بن حصين بن زيد الفوارس الضبي^(٧٧)".

يؤكد هذا النص ثانية ما ذهبنا إليه من غياب أي موقف رسمي من قبل الخلافة، وتأتي الإشارة إلى وكيع كأعرابي مقدم لا يبالى بالنتائج ولا ينظر في عاقبة لتعزز التخوف من الإقدام على أمر لا تحمد عقباه وهو ما جعل القبائل النافذة لا تتفق على فعل

جماعي واضح ضد قتيبة. ثم إن وكيعاً، كما أشارت الرواية، صاحب ذر شخصي عند قتيبة بسبب صرف رئاسة تميم عنه إلى غيره، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن وكيعاً كان يعي موقع تميم في معسكر قتيبة وأن قبيلة أخرى غير تميم لن تجرأ على طلب الرئاسة العامة بوجود تميم وهو ما أشار إليه زعيم بكر بن وائل كما أسلفنا، ومع ذلك فلم يكن وكيع ينتظر سنداً من كل تميم بسبب الخصومة مع رئيسها الذي ثبته قتيبة بدلاً عنه، ناهيك عن القبائل الأخرى، بل أخذ يخطط على تغييره الأقرب إليه كما جاء في الرواية، وسنرى أن الطموحات التي ظهروا فيها عند زعيم الموالي هي التي سهلت مهمة وكيع في التخلص من قتيبة، خاصة في ظل أن قتيبة الأسير إلى اعتمادهم عليهم. ورغم الإشارة الأولى إلى غش القبائل مع قتيبة، إلا أن أثر ذلك في تدبير الانقلاب على قتيبة سيختفي وسنرى كيف من خلاله بالإضافة إلى الموالي.

وما يمكن تصوره باطمئنان هو أن قبيل وشيخ الأسير ضد قتيبة سيدفع الطامحين وأصحاب الخصومات التي تراكمت في معسكر قتيبة في السنين الدوالي للالتحاق بوكيع ومبايعته، ومع ذلك فقد كان الأمر صعباً في السر مما يشي بأن وكيعاً وبسبب غياب الإجماع عليه، لم يكن بالقوة التي تظهر في الظاهر بولايته، وهو ما يدعم موقف قتيبة ولو إلى حين، ويكفي أن نشير إلى أن زعيم تميم ومرار بن حصين هو الذي أبلغ قتيبة باختلاف الناس إلى وكيع ومبايعته سرا، ونرى أن لا تنقي بالاً للرواية التي أوردها صاحب العيون والحدائق وزعمت أن قرابة تميمين ألما بايعة وكيعاً لخلافة قتيبة^(٧٨)، خاصة وأن قتيبة بن مسلم إنما تأكد من سرية مبايعات الناس لوكيع عن طريق الحيلة حين أرسل إليه من يبايعه من قبله أن يطلع الأمر، وعندها تيقن أن ما بلغه من اختلاف الناس إلى وكيع للمبايعة لم يكن كذماً.

وكان حيان النبطي زعيم الموالي البالغ عددهم سبعة آلاف أبرز أعوان قتيبة في مواقع كثيرة، كما كان الموالي عدته وقوته طوال الوقت. وقد انتهز حيان النبطي فرصة الخلاف القائم وأراد القيام بمغامرة، والخروج منها بنصيب دنيوي وافر، فطرح على

وكيع أن يجعل له جانب نهر بلخ وخراجه ما دام حياً وما دم وكيع والياً^(٧٩)، كشرط لمؤازرته فيما نواه، فوافق وكيع على الشرط ودفع حيان الموالي للمبايعة قائلاً لهم: "هؤلاء يقاتلون على غير دين فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً"^(٨٠)، ونستطيع أن نقرر هنا أن الضربة القاضية التي أسقطت رأس قتيبة كانت تحول ولاء الأعاجم في هذه اللحظة عنه إلى وكيع، إذ فقد بذلك آخر سند له، علم قتيبة بأن حيان النبطي زعيم الموالي حول ولاءه إلى وكيع فأراد استدعائه إليه ليقبله لكن جواسيس في حشم قتيبة قد أبلغوه بالأمر فلم يأت وأدعى المرض ومثله اعتذر وكيع عن القدوم إلى قتيبة، وهكذا أخذ وكيع وحيان النبطي يتأهبان لمواجهة الأوب منها بعد انكشاف المستور.

ونظرة سريعة إلى معسكري المواجهة تكشف أن قتيبة كان في قلعة من عشيرته وأعوانه، وهم الذين لم يتجاوزوا الإحدى عشر شخصاً، وهم كل الذين ذكرت الرواية أنهم قتلوا. لم يتمكن قتيبة من الاستعداد بأحد فقد باعته خصومه في فسطاطة وقتلوه كما تقول إحدى الروايات فتكا^(٨١). أما الذين أرادوا الاستعداد بهم بالأسم فكانوا من بني عامر إلا أنهم رغبوا عن نصرته لما سلف منه من جفساء. فذهبت مناشدته لهم هباء^(٨٢)، وتشير المحاوراة التي يوردها ابن الأثير أن حزازات كثيرة صنعها قتيبة عند هذه القبيلة وربما عند غيرها صعبت على كل القبائل نجدته فترك لمصيره مع وكيع الموتور. وقد زاد ابن خلدون (ت ١٤٠٦ هـ) على هذه الرواية فذكر أنه نوادي في القبائل قبيلة قبيلة ولم يجبه أحد^(٨٣). أما معسكر وكيع فكان أكبر بكثير من معسكر قتيبة فإلى جانب من بايعه سراً من خصومه قتيبة أعانه بنو عامر، والموالي وكانوا العامل الحاسم في هزيمة قتيبة ومقتله لأنهم كانوا أعلمه بالمقربين وبفقدتهم وانضمامهم للخصم حسمت الواقعة سريعاً لصالح وكيع وسقط قتيبة قتيلًا.

ولعل النص التالي الذي يورده ابن الأثير يكملنا عن الساعات الحرجة التي سبقت مقتل قتيبة، فقد صور ابن الأثير توجه وكيع إلى فسطاط قتيبة "وجعل الناس ينادي بعضهم بعضاً وهم يقولون: "افزعوا إلى وكيع شيخ تميم، قال: وأقبل الناس ممن كل أوب،

وأقبل وكيع حتى وقف بإزاء فسطاط قتيبة، فصار بنو تميم والأزد مقابل الفسطاط، وقبائل ربيعة من وراء السرداق، وقتيبة في أهل بيته، وأقبلت قبائل قيس لينصروا قتيبة فعملوا أنهم لا طاقة لهم بأهل العسكر^(٨٤)، ولكنهم حاولوا على الأقل ولم يخذلوه كما أشار إلى ذلك فيلهوزن.

ولا ترد أخبار عن موقف تميم كلها ويبدو أنهم لم يشتركوا كقبيلة إلى جانب وكيع بسبب خصومة زعيم تميم الذي ثبته قتيبة في رئاسة القبيلة بدلاً عن وكيع، ومع ذلك فليس هناك أخبار أيضاً عن اشتراك تميم إلى جانب قتيبة. ويبدو أن قبائل قيس المنضوية ضمن مصطلح أهل البصرة هي الوحيدة التي حاولت نجدة قتيبة فأدركت عدم قدرتها على ذلك، لكنها ظلت تتأفح فيما بعد وتصرّ على أن قتيبة لم يخلع كما مرّ بنا. كما لا ترد أخبار عن مواقف كل من عبد القيس وأهل البصرة (أهل العالية) مما قد يعني وقوفهم على الحياد. ونخلص إلى أن بعض تميم وكل الأزد وبكر بن وائل قد ناصر وكيعاً ضد قتيبة. وفيما يتعلق ببكر بن وائل فإن موقفهم غير واضح فيما عرف بوقعة وكيع. فهناك رواية الطبري التي تصور وكيعاً يتساعل عن مصير رأس قتيبة فيخبر أن الأزد أخذته فيقسم لا يبرح مكانه حتى يؤتى بالرأس فيتدخل زعيم بكر بن وائل ويذهب إلى الأزد فيقول لهم "أحمق أنتم! بايعناه وأعطيناه المقادة وعرض نفسه، ثم تأخذون الرأس! أخرجوه لعنه الله من رأس"^(٨٥)، بينما تشير رواية ابن أعثم إلى أن رجلاً من الأزد هو الذي ذهب إلى قومه واسترد منهم الرأس وقال لهم العبارة السالفة^(٨٦). وهناك رواية أخرى عند ابن خياط تصور زعيم بكر بن وائل حصين بن المنذر جالساً مع أحدهم يوم مقتل قتيبة ومشيداً بمناقبه التي لا تتوفر عند غيره، وهي رواية لا تتفق مع الأحداث وانخراط زعيم بكر بن وائل مع زعيم الأزد اليمانية منذ البداية في التحريض ضد قتيبة، ويبدو أنه قد حصل خلط في الأسماء وأن رواية ابن خياط تتحدث عن موقف زعيم تميم، ضرار بن حصين الضبي، وهو الموقف المنسجم مع الأحداث والقائم على قناعة شخصية بأهمية دور قتيبة^(٨٧).

ومع ذلك فلم يهنا وكيع بخراسان إلا أقل من عشرة أشهر فقد لعبت دسائس يزيد بن المهلب دورها عند الخليفة سليمان ولم يحصل وكيع على كتاب تولية لخراسان فلزّيح عنها وانتهى الأمر به إلى السجن والتعذيب^(٨٨).

صلة الخليفة سليمان بقتل القائد قتيبة:

واستكمالاً للموضوع لا بدّ من تحرير مسألة صلة الخليفة سليمان بقتل القائد قتيبة، خاصة وأن بعض المراجع الحديثة تلمح تارة وتصرح أخرى بأن الخليفة سليمان قد نكل بأعظم الفاتحين وهم ابن نصير ومحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي^(٨٩)، ويحاول آخرون تبرئة سليمان من هذا التتكيل أو البحث عن عذر لأفعاله^(٩٠).

وستترك الحديث عن ابن نصير ومحمد بن القاسم الثقفي، لأن شواهد التتكيل بهما من الوضوح بحيث لا ينكرها إلا مكابر، ومع ذلك فلا بدّ من التشديد على أن الخليفة سليمان لم يأمر بالقتل لا لآل عقيل عشيرة الحجاج بن يوسف ولا لابن نصير ولا لابن القاسم الثقفي، فالأخير مات في السجن، وابن نصير مات موتة طبيعية بعد تعذيبه وتخريمه بالأموال، كما أننا نستطيع أن نقرر هنا أيضاً بعد الإحاطة بكافة الروايات ذات الصلة، أن الخليفة سليمان لم يأمر بقتل قتيبة ولم يشترك في أي تدبير لقتله، ويبدو أن الصفات التي ذكرها المسعودي (ت ٣٤٥هـ)، في التنبيه والإشراف تقترب من الواقع كثيراً فقد وصف الخليفة سليمان بأنه "أكولا، نهماً، نكاحاً، لا يعجل إلى سفك الدماء ولا يستكف عن مشورة النصحاء فيه حسد شديد"^(٩١)، وأهم صفة نود التركيز عليها إنه لا يعجل إلى سفك الدماء لتعزيز بها ما ذهبا إليه. وعلينا أن لا ننسى أن مستشاره وخليفته كان الخليفة الأموي الورع عمر بن عبد العزيز الذي كان له رأي حسن في قتيبة، ولا شك أن وجوده في مجلس سليمان قد أسهم فقط في تعقيل غضب الخليفة سليمان على قتيبة ولم يصل إلى حد العفو عنه، كما أنه لم يستطع أثناء الخليفة سليمان عن الاعتماد على يزيد ابن المهلب.

ومع ذلك فإن التنكيل بأولئك القادة قد عني في ظل الموازنات المعتمدة لذلك العصر نكران جميل هؤلاء القادة، بحيث لم تشفع لهم فتوحاتهم العظيمة مما حصل بهم من عذاب وتتكلم. أما ما يتعلق بقتيبة ولحسم صلة سليمان بمقتله نورد الآتي:

١- لا تذكر المصادر التقليدية المعروفة شيئاً عن صلة سليمان بمقتل قتيبة، كما ذكرت صلته بالتعذيب والتنكيل بمن ذكرنا.

٢- يورد البغدادي صاحب خزائن الأدب رواية تفيد أن خبر مقتل قتيبة والتي عرفت بوقعة وكيع التميمي، قد أتاه بينما كان في الحج، فظن أن بني تميم قد قتلوا قتيبة تمرداً على الخلافة، وقد همه هذا التمرد أكثر من مقتل قتيبة الذي رحب به بعدئذ، فقام خطيباً بمسجد عرفات "فذكر غدر بني تميم ووثوبهم على سلطانهم وإسراهم إلى الفتن وأنهم أصحاب فتن وأصحاب غر وقلة شكر، فقام إليه الفرزدق فقال وفتح رداءه: يا أمير المؤمنين، هذا ردائي رهن لك بوفاء بني تميم، والذي بلغك كذب"^(٩٢)، ثم جاءتبيعة وكيع لسليمان فافتخر الشاعر المشهور التميمي الأصل الفرزدق وأخذ يقول الشعر في مفاخر بني تميم لقتلهم قتيبة، كما اشتهرت قصة الرداء كرهن.

هذه الرواية تبين بجلاء أن ليس للخليفة سليمان يد في قتل قتيبة، ولا شك أن الخليفة سليمان كان يعرف أن تميم هي أكثر مضر في جند قتيبة فخشي أن يكون في قتلها لقتيبة تكراراً لما فعله ابن الأشعث ضد الحجاج والخلافة قبل عشر سنوات من الآن. ومع ذلك فإن مقتل قتيبة وبقاء إقليم خراسان وما وراء النهر مخلصاً للخلافة قد سر سليمان وأرضاه، كما سره مقتل قتيبة و"وقع من سليمان كل موقع"^(٩٣). وينقل الطبري وابن الأثير رواية فيها أيضاً ما يفيد تبرئته من دم قتيبة مباشرة وفيها أنه لما أتى سليمان رأس قتيبة مع رؤوس أهله كان عنده الهذيل بن زفر وهو مثل قتيبة من قيس عيلان^(٩٤)، فسأله سليمان إن كان قد ساءه ما حلّ بقتيبة فأجاب الأخير بجواب عام "لو ساءني لساء قوماً كثيراً فقال سليمان ما أردت كل هذا"^(٩٥)، وهذا يعني أن الخليفة

سليمان لا يد له في مقتل قتيبة، لكن ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، إقرار منه برضى سليمان لما حلّ بقتيبة يعلق على هذه العبارة بالقول: "وإنما قال سليمان هذا للهديل لأنه هو وقتيبة من قيس عيلان"^(٩٦). والخلاصة أن الخليفة سليمان لم يأمر بقتل قتيبة مباشرة ولا اشترك في تدبير مقتله مع أحد، ومع ذلك فقد سقط قتيبة ضحية صلاته السيئة بسليمان.

الخلاصة:

والخلاصة هي أن قتيبة بن مسلم الباهلي أحد الفاتحين العظام في خراسان وما وراء النهر. ارتبط بالحجاج بن يوسف الثقفي حاكم المشرق كله للخليفة الوليد بن عبد الملك، ثم شايعه بخلع سليمان الخليفة الجديد بن عبد الملك عن ولاية العهد لصالح ولد الخليفة عبد العزيز ولم تتجح محاولة العزل فصار سليمان خليفة. وقد أراد قتيبة معالجة الموقف بينه وبين الخليفة الجديد بجملة إجراءات منها الإيغال بالجند إلى فرغانة ثم الكتابة إليه معزياً بأخيه ومهنئاً بالخلافة، ولم يعجل الخليفة في اتخاذ موقف حاسم من قتيبة فيما حاول عبر الإشاعات والأعوان إفراغ معسكره من الجند مستغلاً التناقضات التي تفجرت هناك ورغبة الجند في العودة من فرغانة التي سيقوا إليها بالحيلة بعد عودتهم من حملة الفتح الأخيرة. وقد خاطب قتيبة الجند محاولاً استمالتهم إلى صفه للحفاظ على منصبه لينجو من مصير مؤلم بسبب ما بدر منه ضد الخليفة الجديد ولم يفلح، وقد استغلت القبائل المتربصة في معسكره الأزمة القائمة بينه وبين الخلافة فأغرّت أحد الموتورين من قتيبة وهو وكيع بن الأسود التميمي، فقام تحالف سري سرعان ما انكشف ضد قتيبة وفي المواجهة العسكرية الخاطفة لقي قتيبة مصرعه بعد أن فقد آخر أركان قوته وهم الأعاجم.

وقد أمكن ومن خلال فرز الروايات وتمحيصها ترجيح أن الخليفة لم يقر قتيبة على ولايته كما ذهب إلى ذلك معظم المصادر والمراجع الحديثة، بل عزله عنها، كما

أمكن التحقق من أن قتيبة، وبخلاف الغالب في المصادر والمراجع الحديثة، لم يخلع الخليفة، بل أراد تطيبب العلاقة معه، كما أظهر البحث أن مجريسات الأحداث في فرغانة ومقتل قتيبة قد حدثت تحت تأثير تغير موازين القوى في مركز الخلافة وفي غياب أي موقف رسمي للخلافة من قتيبة، كما أظهر انعدام الصلة بين الخليفة سليمان ومقتل قتيبة بن مسلم وإن كان الأخير قد سقط ضحية علاقته السيئة بالخليفة سليمان.

وتبقى خلاصة أليمة أخرى لا بد من ذكرها وهي أن التفاني في خدمة الصالح العام الإسلامي وإحراز الانتصارات في الفتوح وإدخال الناس في الإسلام كما فعل قتيبة لم تكن كلها لتجدي شوافع عند أحد، لقد كانت المصالح المنتظرة من تغير اتجاهات السياسة في المركز هي سيدة الموقف، ويبدو أن لا أحد في معسكر قتيبة كان يقيم وزناً مؤثراً لبطولاته وإنجازاته، بل وخدماته المباشرة التي ذكرهم بها عبثاً في خطبته وإلا لما حل له ما حل، وتؤكد قصائد الفخر التي أطلقها الرزدق على سيادة ثقافة لا تحفل بفتاح عظيم كقتيبة، بل ببطولات تميم في قتلها له، وحدها قصائد الرثاء، وبحكم الغرض الشعري لهذه القصائد، هي التي تلقت لمصائر الأبطال وتخلد ذكرهم بنفث الحزن والأسف عليهم وإظهار المناقب والأفعال الحميدة لهم، لكنها تأتي دائماً متأخرة، فلا تردّ ميتاً، ولا توقف سيفاً، ولم تؤسس لثقافة تقوم فيها الأعمال الجليلة للأفراد ذوائد عن أصحابها^(٩٧).

الحواشي

- (١) انظر على سبيل المثال: شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، ط٥، دار العلم للملايين، ١٩٨٠، ص ٢٠٨ وما بعدها.
- (٢) يوسف العث، الدولة الأموية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٥٤-٢٥٥.
- (٣) عبد الشافي عبد اللطيف، العالم الإسلامي في العصر الأموي، دراسة سياسية، ط١، د. ن، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٣٥٢.
- (٤) مجموعة مؤلفين، الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، تأليف د. لييد ابراهيم أحمد، د. عبد الواحد ذا النون طه، د. عبد القادر سلمان المعاضدي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٩٢، ص ١٧١.
- (٥) فيلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية الإسلامية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريده، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٤١٧-٤٢١.
- (٦) نورد هنا ما ينقله الذهبي في تاريخ الإسلام ومما وجدته في المصادر المختلفة عن قبيلة باهلة، وأولها بيت الشعر:
وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة
وقال آخر:
ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب
"وقيل لبعضهم أيسرك أنك باهلي وأنت دخلت الجنة؟ قال أي والله بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أنني باهلي". تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن أحمد بن عثمان، حوادث وفيات ٨١-١٠٠،
دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٤٥٥. وعند ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان، ج ٤، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩، ص ٩٠. "أن الأشعث بن

قيس الكندي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتتكافأ دماؤنا؟ فقال: نعم، ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك به".

(٧) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٨٧/٢.

(٨) ابن الكلبي، جمهرة النسب، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، ط ١، مكتبة النهضة، بيروت، ١٩١١، ص ٤٩٣.

(9) H. Gibb, *The Arab Conquest in Central Asia*, London, 1923, P. 29.

(١٠) ابن أعمم الكوفي، الفتوح، أبو محمد أحمد بن أعمم، ج ٧-٨، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، انظر مراسلات الحجاج لقتيبة في ص ١٧٧، ١٨٤، ١٨٣.

(١١) يذكر ابن الأثير ٥٨٣/٤، أن قتيبة اعتم كثيراً لموت الحجاج وتمثل يقول:
لعمري لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى أعلقتـه الحبائل
فإن تحي لا أمل حياتي وإن تمت فما في حياة بعد موتك طائل
(١٢) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج ٤، الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥، ٥٨٣/٤.

(١٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٢/٧.

(١٤) ابن الأثير، ١٣٨/٤، ابن الجوزي، ١٢/٧.

(١٥) ابن الجوزي ١٢/٧.

(١٦) اليعقوبي ٢٨٥/٢.

(١٧) اليعقوبي ٢٨٨/٢.

(١٨) ابن الأثير ١٣٤/٤.

(١٩) الدينوري ٢٨٠، ٣٢٧.

(٢٠) "مدينة وكورة واسعة مما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير، واسعة الرستاق، يقال كان بها أربعون منبراً، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً" انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، دار صادر، بيروت، د. ت. ص ٢٥٣.

(٢١) البعقوبي ٢/٢٩٥.

(٢٢) يرد اسم هذا الرجل عند البلاذري هكذا: هبنفة العائشي، وهو عند ابن أعثم والطبري والمصادر الأخرى: يزيد بن ثروان هبنفة العبسي، وسنعرفه أكثر في موضعه.

(٢٣) البلاذري، أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤١٢.

(٢٤) البلاذري ٤١٢.

(٢٥) البلاذري ٤١٢.

(٢٦) البلاذري ٤١٢.

(٢٧) البلاذري ٤١٢.

(٢٨) ابن أعثم ٤/١٨٩.

(٢٩) ابن أعثم ٤/١٨٨.

(٣٠) البلاذري ٤١٤. البعقوبي ٢/٢٩٥.

(٣١) ابن أعثم ٤/١٨٨-١٨٩.

رمانى سليمان بأمر أضنه	سيحمله منى على شر مركب
رمانى بجبار العراق ومن له	على كل حي حد ناب ومخلب
وللموت خير من حياة ذليلة	وحبل ضعيف قد وهي مقتضب
وللترك أدنى في الوداد مودة	وأقرب منى من بنى المهلب

- (٣٢) ابن أعثم ١٨٩/٤.
- (٣٣) ابن أعثم ١٩٠/٤.
- (٣٤) اليعقوبي ٢٩٥/٢.
- (٣٥) لا توضح الروايات عند أي نهر ترك قتيبة جنوداً يمنعون الناس من العودة، وعند النظر إلى الخريطة نرى أن النهر القريب من فرغانة هو نهر إيلاف، وهو فرع من نهر سيحون، أما نهر جيحون فيبعد كثيراً عن فرغانة إلى الغرب، ونحن نرجح أن يكون قد ترك جنداً عند إيلاف القريب من فرغانة، وهو ما يضمن بقاء الجند في معسكره، انظر **أطلس التاريخ الإسلامي لحسين مؤنس**، دار الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧، خريطة رقم ٦٤، ص ١١٨.
- (٣٦) ابن الأثير ١٣٥/٤.
- (٣٧) ابن أعثم ١٩٠/٤.
- (٣٨) ابن أعثم ١٩٠/٤.
- (٣٩) ابن أعثم ١٩١/٤. الطبري ٥٠٧/٦-٥٠٨، مجهول ١٧/٣-١٨، ابن الجوزي ١٨/٧-١٩.
- (٤٠) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، ج ٦، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ٥٠٨/٦.
- (٤١) الطبري، ٥٠٨/٦.
- (٤٢) ابن أعثم ١٩٣-١٩٤.
- (٤٣) اليعقوبي ٢٩٤-٢٩٥/٢.
- (٤٤) اليعقوبي ٢٩٦/٢.
- (٤٥) الطبري، ٣٢٦/٦. وما بعدها. انظر كذلك عبد الشافي ٥٠٧-٥١٦.
- (٤٦) مما يشير إلى أن الخليفة سليمان استعمل عيوناً وأعواناً سريين لمعرفة نوايا قتيبة وبالتالي الإسهام في درء خطر التمرد قبل وقوعه، ما يورد الطبري

٥٠٨/٦-٥٠٩، من رواية متعلقة بأحد أعوان الخليفة من بني تميم صالح بن عبد الرحمن الذي قدم إلى العراق فوجه توبة بن أبي أسيد العنبري للاطلاع على نوايا قتيبة "فوجهني إلى قتيبة ليطلعني طلع ما في يده" ثم يصف الرجل كيف كتم مهمته عن رفيق سفره مما حمل زفيف السفر إلى أن يقول له: "أراك في أمر جسيم وأنت تكتمني" لكن الرجل لم يتم مهمته إذ تلقاه الناس بقتل قتيبة وهو بحلولان.

(٤٧) الطبري ٥٠٩/٦.

(٤٨) رجل يضرب به المثل في العي والخبال، انظر الثعالبي، ١٢٧.

(٤٩) حول يزيد بن ثروان الذي استخدمه قتيبة في خطبته للتشبيه، يورد الثعالبي في ثمار القلوب في باب "فيما يضاف وينسب إلى رجال مختلفين" أي فيما يضاف وينسب إلى رجال ارتبطت بأسمائهم معان شاعت بين الناس، وفيما يخص هبنفة هذا فقد اتصف بالحمق ف قيل "حمق هبنفة" الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (٤٢٩)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٢٤. وفي موضع آخر من الكتاب يورد الثعالبي حكايات تبين حمق وبلادة هبنفة وما ارتبط باسمه من شعر للاستشهاد على الحمق. ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٥٠) الطبري ٥٠٩/٦-٥١١، هناك زيادات طفيفة عند ابن أعثم ٧-٨/١٩٥، لهذه الخطبة ولكنها لا تخرج عن السياق العام، ولعل أهم الزيادات الفقرة التالية "أما والله لئن وليكم يزيد بن المهلب ليعصبنكم عصب النسعة وليقر عنكم قرع المروة. قال: فسكت الناس فما أجابه بشيء، فجعل يتمثل بهذا البيت:

إن أمراً ملك اليمامة كلها أعطى الملوك مقادة لم يضل

(٥١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) البيان والتبيين، مج ٢، دار مكتبة الهلال ١٩٩٢، ٩٠/٢. وقد وهم المحقق فشكل كلمة الخلع وجعلها مبنية للمجهول فصار المعنى أن سليمان هو الذي خلع قتيبة، وقد لزم التنبيه.

(٥٢) ابن أعثم ١٨٩/٤.

أَقْتَيْبَ إِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ عَظِيمَةً فَاَنْظُرْ قَتِيْبَةً أَيْنَ أَيْنَ الْمَهْرَبِ
أَصْبَحْتَ نَاكثَ بَيْعَةٍ أَعْطَيْتَهَا طَوْعاً فَجَلَدَكَ لِلْخَلَاْفَةِ أَجْرَبِ
(٥٣) يذكر ابن أعثم ١٨٩/٤. إن بعضهم أنشد شعراً فيه:

أَقْتَيْبَ إِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ عَظِيمَةً فَاَنْظُرْ قَتِيْبَةً أَيْنَ أَيْنَ الْمَهْرَبِ
أَصْبَحْتَ نَاكثَ بَيْعَةٍ أَعْطَيْتَهَا طَوْعاً فَجَلَدَكَ لِلْخَلَاْفَةِ أَجْرَبِ... إلخ

(٥٤) ابن أعثم ١٩٦/٤.

(٥٥) اليعقوبي ٢٩٥/٢.

(٥٦) اليعقوبي ٩٥/٢.

(٥٧) البلاذري ٤١٤/٤١٥.

(٥٨) الطبري ٥٢٧/٦.

(٥٩) الطبري ٥٢٧/٦.

(٦٠) الطبري ٥٢٧/٦.

(٦١) ابن الأثير ١٤٢/٤.

(٦٢) ابن أعثم ١٩٦/٤، يتحدث ابن أعثم عن نصيحة أحد الوجهاء لقتيبة بالإذن للناس في العودة أو إعطائهم حقوقهم أو الاستعداد لحربهم بالأعاجم فيرفض قتيبة كل ذلك، ثم يخبره الرجل أنه إذا مقتول.

(٦٣) البغدادي، خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨، ٨٣/٩.

- (٦٤) السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، الأنساب، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٧٥.
- (٦٥) ابن الأثير ١٤٢/٤.
- (٦٦) النرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، تاريخ بخارى، عربيه عن الفارسية أميم عبد المجيد المجذوب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٨٠.
- (٦٧) ابن أعثم ١٩٥/٤.
- (٦٨) العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ص ٢٩٠.
- (٦٩) انظر الهامش رقم ٦.
- (٧٠) الثعالبي ١١٩.
- (٧١) الطبري ٥١١/٦.
- (٧٢) يظهر ذلك فيما رواه النرشخي صاحب تاريخ بخارى، ص ٨٠. عند حديثه عن تقسيم بخارى بحيث بدأ قتيبة بربيعه ومضر ومنح الباقي لأهل اليمن.
- (٧٣) في كتاب الإيناس في علم الأنساب للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي (ت ٤١٥هـ)، دار اليمامة، السعودية، ١٩٨٠، ص ٨١، حديث عن قبيلتين كلاهما يسمى بكر بن وائل، الأول من ربيعة والثاني من قبائل سعد العشيرة السبابة اليمنية، والمقصودين هنا بكر بن وائل من ربيعة الذين تظهر أصداء تحالفاتهم مع أهل اليمن في أكثر من حرب.
- (٧٤) الطبري ٥١١/٦.
- (٧٥) ابن الأثير ١٤٠/٤.
- (٧٦) الطبري ٥١١/٦. ابن الأثير ١٤٠/٤.
- (٧٧) الطبري ٥١١/٦-٥١٢.

- (٧٨) مجهول/ العيون والحدائق من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم، ج ٣، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٦٩، ١٨/٣.
- (٧٩) الطبري ٥١٢/٦.
- (٨٠) الطبري ٥١٢/٦.
- (٨١) الطبري ٣٧٢/٧.
- (٨٢) ابن الأثير ١٤١/٤.
- (٨٣) ابن خلدون: كتاب التاريخ، ج ٥، دار الكتاب المصري واللبناني، بيروت، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٥٠.
- (٨٤) ابن أعثم ٢٠١/٤.
- (٨٥) الطبري ٥١٨/٦.
- (٨٦) ابن أعثم ٢٠٤/٤.
- (٨٧) ابن خياط، تاريخ خليفة ابن خياط، ط ٢، دار القلم ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧، ص ٣١٣. تقول الرواية بعد استبدال الاسم فيها باسم زعيم تميم، أتيت حضين بن المنذر حين سار الناس إلى قتيبة فقال لي: ما صنع القوم؟ قلت ما أراهم إلا قاتليه إن وصلوا إلى قتله، فأطرق طويلاً ثم قال يا بن أبي حاضر كم ترى في هذا العسكر من فرس ودابة وبغل وحمار؟ قلت: مائة ألف. قال فوالله لو انتخبوا من ذلك عشرة آلاف ألف، ثم بعثوا كل واحد في وجه يطلبون مثل قتيبة ما قدروا عليه" وكما ذكرنا فإن هذا القول يصدر عن صديق مقرب لا عن شخص شارك وأعان على قتله.
- (٨٨) الطبري ٥٢٧/٦.
- (٨٩) سبق وأن ألمحنا إلى كتاب مهدي عماش الموسوم قتيبة بن مسلم الباهلي وملا فيه من إدانة صريحة للخليفة سليمان وقبله كتب المستشرق آرموس فامبري، عن محاولة الخليفة الجديد استمالة فريق من جند قتيبة إليه بعد أن فشل في

التغريب بأمر خراسان، فامبري لآرموس، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة أحمد محمود الساداتي، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٧٠. وهو على العموم كتاب قديم ومعظم معلوماته مغلوطة وقد عفى عليها الزمان.

(٩٠) من ذلك ما ذكره الدكتور عبد الشافي، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص ٣٥٢، بأن قتيبة تعجل الخلع وأن الخليفة سليمان كان أقره على ولايته تكريماً له.

(٩١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٧٥.

(٩٢) البغدادي ٣٧٢/٧-٣٧٣.

(٩٣) الطبري ٥٢٦/٦.

(٩٤) انظر مجموعة الرسائل الكمالية (٨) في الأنساب، نسب عدنان وقحطان، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) مكتبة المعارف، الطائف د. ت. ص ٣٠، يذكر المبرد في هذه الصفحة صلة قيس عيلان بمضر وصلة قتيبة بقيس عيلان. وانظر أيضاً في نفس المجموعة لابن عبد البر، الأبناء على قبائل الرواة، ص ٨٧-٨٨، صلة قيس بن عيلان بمضر، وترد عند ابن عبد البر أشعار تمجيد لقيس عيلان، لكن يبدو أن تلك الأمجاد المرصودة لقيس عيلان لم تنسحب على باهلة كقبيلة منحدره منها، فكان ما كان من استكاف العرب من نسب باهلة.

(٩٥) الطبري ٥١٩/٦. ابن الأثير ١٤٢/٤.

(٩٦) ابن الأثير ١٤٢/٤.

(٩٧) سن شعر الفرزدق التميمي يفخر بوقعة وكيع:

ومنا الذي سل السيوف وشامها عشية باب القصر من فرغان

عشية ود الناس أنهم لنا عبيد إذ الجمعان يضطربان
فيجزى وكيع بالجماعة إذ دعا إليها بسيف صارم وبنار
ومن رثاء خصمه جرير نقرأ الأبيات التالية عند ابن خلكان ٨٨/٤:

ندمت على قتل الأغر بن مسلم وأنتم إذا لاقيتم الله أندم
لقد كنتم من غزوه في غزيمة وأنتم لمن لاقيتم اليوم أندم
على أنه أفضى إلى حور جنة وتطبق بالبلوى عليكم جهنم
ومن رثاء قتيبة نقرأ لشاعر باهلي هو عبد الرحمن بن جمانة ما يلي:

كان أبا حفص قتيبة لم يسر بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والجيش حوله وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
فما رزى الإسلام بعد محمد بمثل أبي حفص فبكيه عبهرا
(وهي أم ولد لقتيبة)

انظر الأشعر في الطبري ٥٢٠/٦-٥٢١. ابن الأثير ١٤٢/٤-١٤٣.